المتحوّلون

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 4883 / 2020

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 838 – 465 – 9

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق الوطنية ببغداد 354 لسنة 2020

الكتاب: المتحوّلون

المؤلف: حسن عبيد عيسى

لوحة الغلاف: الفنانة التشكيلية د.زينب علي عبد

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

المتحوّلون

رواية

حسن عبيد عيسى

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

إعتاد العميد الركن باسل ضابط استخبارات الفرقة السابعة وهو عائد من لقاء قائد الفرقة في الحادية عشر مساء ان ينظر عبر نافذة صغيرة على الجدار الذي يفصل الممر المؤدي الى مكتبه عن غرفة مرؤوسه الملازم الاول سعد الذي أحسن تدريبه حتى بلغ مستوى الكفاءة، فيشعر بالسرور حين يراه منكباً على عمله يقرأ التقارير والخرائط ويراجع ويحلل ويكتب أو يستعمل التلفون الميداني ليتابع عمل المراصد وضباط إستخبارات التشكيلات والوحدات ..

الا أن هذا الضابط الشاب تغير ولم يبق على الحال الذي إعتاده عليه، فهو منذ خواتيم معارك الموصل التي انتهت بتحريرها من داعش، يبدو حزيناً غارقاً في لجة أفكاره، وأحياناً يراه وقد بلل وجنتيه بدموع يظن أن لا أحد يراها.. ذلك الحال كثيرا ما أقلق رئيسه الذي طالما تمنى ان يقف على حقيقة أمره..فاستمرار سعد على ما هو عليه، يؤثر على العمل في قسم الإستخبارات الذي يرأسه..إذ إنه لولب القسم كما يطلق عليه باسل..هذا اللولب أصيب بعطب ولا يسمح لأحد بالكشف عن أسبابه مما يحول دون معالجته.إضافة الى ذلك فهو على المستوى الشخصي يهمه وأمره يعنيه وفاءً منه لشاب في مقتبل العمر، التصق به من خلال العمل طوال ثلاث سنين .

في الموصل كان سعد يعمل ليل نهار يجمع نتف المعلومات من الجهات المختلفة ويحللها ويحرر التقارير، محولاً تلك المعلومات الى إستخبارات تضيئ الدرب أمام القائد وفريق التخطيط في غرفة الحركات ليضعوا الخطط ويعدّلوها ويشرفوا على تنفيذها في ضوء ما يمدهم به.. وكان من سيل إبداعه انه تمكن من دس ثلاثة من جنوده بين الدواعش أرسلوا له معلومات دقيقة، ونفّذوا عمليات خطيرة منها خنق عدد من العناصر القيادية المهمة في تنظيم داعش..ما جعل القيادة تستحصل له على قدم وظيفي لستة اشهر.ورشح لنيل وسام عالي المستوى.

وقتها شعر باسل أن هذا الضابط على وشك الانهيار لشدة ما أُرهق به جراء العمل المتواصل والسهر الطويل..وكان يتمنى أن يفرض عليه إجازة لبضعة أيام يرتاح فيها ويستمتع بلقاء خطيبته، وكان سعد يرفض الإجازة بإصرار وهو يقول:

- النصر بات قريباً ولا أريد أن أكون بعيداً عن وقت ومكان صناعته.

- لن تكون بعيدا فأنت من صنّاعه..ولك فخر في ذلك حيثما كنت..

- مع ذلك فأنا سعيد بما أقدم فلا تحرمني فرصة الإستمتاع بالعمل والإحتفال بالنصر..

إلا أنه جاءه ذات يوما مطأطئا رأسه يتلجلج في كلامه وتتحرج الكلمات من الخروج من بين شدقيه.

- سيدي إحتجت اجازة..ليومين فقط.

- وأخيرا..!

قال العميد باسل ضاحكاً على الرغم من ان مشاعره تحمل توجساً للمظهر الذي بدا عليه سعد..

- ولكن ماذاحصل؟ ولماذا يومان فقط؟ فاليومان لا يكفيان لقطع مسافة الطريق بين الموصل والمحاويل ذهاباً وجيئة؟

- تكفيني بضع ساعات أقضيها في المحاويل..

- نعم هكذا أريدك، تُسعد بقرب خطيبتك ولو لساعتين..

قال باسل ذلك محاولاً أن يزيل مسحة الحزن الطارئة التي بدت على وجه سعد..ثم إستدرك..

- عموماً غداً سيغادر القائد الى بغداد لحضور إجتماع في ثكنة وزارة الدفاع ..سأرتب ذهابك معه في الهليكوبتر فالطريق بين الموصل وبغداد غير آمن ليسلكه ضابط، فهو كما تدري حافل بالإرهابيين.عندما تصل بيتك، إتصل بي لأرتب لك أمر عودتك بطريقة آمنة.

حاول باسل أن يتذكر ما حصل بعد عودة سعد..إستعرض حاله مستثمراً حصيلته العلمية الشخصية في مجال علم النفس، لقد تفاقمت مسحة الحزن، وصار يطيل الصمت، أخطاؤه بدأت تكثر، تحليله صار ركيكاً وتقاريره سطحية ..إنه ماضٍ نحو الكآبة بلا شك، فلابد من عمل ينقذه مما هو فيه، بيد أن ذلك يعوزه التشخيص السليم، ولا تشخيص قبل معرفة الاسباب:

– أتراه واقعاً تحت تأثير تهديد عناصر العدو؟.هل ساوموه ليحد من نشاطه الإستخباراتي؟

هكذا كان باسل يضع الإحتمالات ويسقّطها ليبقي على أقواها، محاولا بلوغ الحقيقة، وهو يفكر في حال سعد الذي أصر على أن لا يبوح بشئ مما في رأسه. حتى إن عطاءه تقلص حد التلاشي.. وعندما أزفت ساعة النصر الذي كان الناس ينتظرونه باهتمام لا يقل عن أهتمام صانعيه، رأى باسل ان سعداً استقبل الإعلان بما يمكن وصفه بنصف إبتسامة..

– هل يعقل؟..تلك اللحظة التي ضحى سعد بصحته وراحته وإجازته وهو ينتظر بزوغها، تمر به مرور الكرام حتى انه لم ينفق عليها إبتسامة كاملة.

ما أدهش باسلاً ان سعداً قدم له طلباً للنقل الى أحد أفواج المشاة.. لابد أن الأمر تجاوز حدود قدراته على التحمل..ولكن ما هو ذلك الأمر؟..لذا فإنه بذل جهوداً مضنية حتى جعله يسحب طلب النقل.

كل ذلك صار ماضياً، الا أن ما رآه باسل هذه الليلة فاقم الأمر وهز مشاعره بعنف..فلقد لحظ سعداً من تلك الكوة التي يراه من خلالها دون أن يشعر به، متكئاً على كرسيه ناظراً الى السقف، رافعا رجليه الى فوق المنضدة..وقد ساحت دموعه على خديه حتى بللت قميصه..

- يا الهي..كم بكى هذا الولد!..وكم هو معذبّ..أمره خطير وأراني عاجزاً عن مساعدته، فهو لم يزهد في مساعدتي لأعالج حاله وحسب، وإنما يرفض إطلاعي على سر معاناته..

عندما إستوى على مكتبه ليدون ما تداول به مع القائد..رأى أنه لابد من التعمق في دراسة حالة سعد لجعلها محوراً ضمن إهتمامه البحثي، فهو طالب ماجستير في اختصاص علم النفس..لذا فهو بذلك سيحصل على فرصة فريدة، فهو جهد ميداني ومكتبي في آن واحد سيكون البحث المخصص للنشر قبل تقديم الرسالة.. عوّل على مسعاه ذاك ليكون وسيلته لمساعدة هذا الضابط الذي بدا شبابه يذوي لأمر يريد بقاءه سراً.لابد من بلورة الفكرة ووضع مشكلة

للبحث والتفاصيل ستأتي تباعا ولكن ليس قبل أن يضع يده على حقيقة معاناة سعد.

وكانت الخطوة الاولى..ان إستدعى نائب الضابط فلاح من سكنة ناحية الامام في قضاء المحاويل.الذي يعد من أكفأ نواب ضباط القسم، فهو عنصر أمني واستخباراتي ذكي ويعتمد عليه، حصل على شهادة البكالوريوس في الاعلام قبل أن تتحرك فرقته الى الموصل.

– نائب ضابط فلاح عندنا مهمة لا يليق بالإضطلاع بها الا أنت..

– خيرا إن شاء الله سيدي..فأنت ما شاء الله تدفعني دائماً الى الموت كوني بتقديرك أفضل من زملائي..أتتذكر يوم جعلتني أتنكر بزي راعي غنم وأتسلل الى ضواحي الموصل قبل إنداع معارك تحريرها وكدت أصير أثراً بعد عين؟.

ضحك العميد وقال له:

– لقد صنعتُ لك مجداً من خلال إختياري إياك لتنفيذ تلك المهمة الأسطورية..إذ كان إختياري موفقاً تماماً..ولله الحمد.

– هل عندك لي مهمة مماثلة؟

– لا ..أبدا المهمة التي سأكلفك بها ممتعة..ستقضيها في بيتك.

– سبحان الله..أتجسس على عائلتي مثلاً؟

ضحك باسل ضحكة طويلة وقال بعد أن إستغفر وحوقل:

– لا شك إنك على علم بحال إبن مدينتك الملازم الأول سعد.. فهو ومنذ معارك تحرير الموصل لم يعد ذلك الضابط المنتج النشط المرح..هو كتلة من حزن شديد وخمول ..عجزت عن الوصول الى ما يدمر شبابه..أريدك أن تذهب الى المحاويل وتتحرى سبب كل ذلك الحزن والكسل المكتسبين..لا أريد أن نخسره ويخسره الجيش فهو كما تعلم ثروة وطنية.

– تأمر سيدي..صباحاً سأتوجه الى المحاويل وسيكون أمره أمام سيادتك خلال بضعة أيام إن شاء الله.

– توكل على الله وأرني جهودك .

لم يستغرق فلاح في مهمته أكثر من أربعة أيام..حتى عاد يحمل بيده تقريراً مفصلاً سلمه الى آمره وعلى وجهه علامات تأثر تنبئ عن سوءٍ يحفل به التقرير..لم يطلب باسل من فلاح شرحاً..وإنما سارع الى فتح المظروف في الوقت الذي أدى فيه فلاح تحية الإنصراف.

كان التقرير مقتضبا..لم يتجاوز الصفحتين..إذ كانت خلاصة ماكتب فيه فلاح:

على الرغم من صعوبة الوصول الى المعلومات الشخصية في قرية صغيرة كالتي يسكنها الملازم الأول سعد عبد الصمد إلا انني

وُفقت الى بلوغ هدفي والحصول على المعلومات الدقيقة من مصدرين درجة الثقة بهما عالية أحدهما قريب لي هو أكرم حسان جار الملازم سعد وثانيهما أزهار إبنة العقيد مزبان الذي عملتُ معه سنين طوال في كتيبة الإستطلاع العميق في الفيلق الاول سابقاً والذي قدم لي كريمته لتعينني على بلوغ مرامي..فهي صديقة سلوى صالح خطيبة الملازم سعد.

فالملازم سعد كان ومنذ دراسته الثانوية شغوفاً بسلوى إبنة خالته التي كانت وقتها في المتوسطة.. وعندما تخرج من الكلية العسكرية فإنه أفضى الى أهله برغبته في خطوبتها..لقي ذلك البوح قبولاً وسعادة من أهله كونهم مثله يتمنون أن تكون إبنتهم سلوى كنّتهم.. ولم تكن سعادة خالته وذويها أقل من سعادة أسرته وهي ترى ما كانت تتمناه يتحقق..فإبن أختها محط أنظار كل فتيات القرية، وكل منهن تتمناه زوجاً.وها هي إبنتها تفوز به وكأنه جائزة قبولها في الثانوية.

بعد قبولها في كلية الطب بجامعة بغداد عقد قرانهما .كانت الأمور رتيبة بإنتظار تخرّج سلوى طبيبة ليتم الإحتفال بدخولهما القفص الذهبي..لم تكن سلوى تشعر بميل صوب سعد، بل ربما كانت تنفر منه، ولم يكن ذلك الأمر يقلقه كثيراً بعد أن تأكد من خلو فسحة قلبها من أي شاب آخر، فالأمور تسوى بالتدريج كما

كان يرى.أخذت سلوى تتغير تغيراً غير طبيعي.. إخشوشن صوتها.. وظن الأهل انها مصابة بإنفلاونزا..كانت تقول لهم ليس الأمر بهذه البساطة، انه أكثر عمقاً من الإنفلاونزا..ربما هي تدرك ما ينتظرها أكثر من أهلها..

وفجأت بدأ زغب وجهها يخشن ويسْوَد..عندما إنتهت العطلة الصيفية فإنها لم تعد تطيق الذهاب الى الكلية ..فهي الآن ملتحية وشاربها يدل على رجولة حامله..لا يميزها عن الفتيان إلا الفستان.

كان الملازم الأول سعد يراقب الحالة ويتمنى أن تكون حالة طارئة ومرضاً يسهل الشفاء منه بإعطائها جرعات إضافية من الهرمونات الأنثوية كما أخبره أخوه مدرّس مادة الأحياء، الا أن خالته همست بإذنه ذات يوم بأن سلوى لم تطمث حتى الان.. لم يكن سعد يهتم بالأمر فهو يعرف ان لكل مرض علاج، ما يهمه ان يحظى بسلوى التي منّى نفسه في أن تبادله الحب بمثله.

كانت الحلقة الأخطر في ذلك المسلسل يوم كان سعد يعمل بحماسة شديدة من أجل صنع معالم النصر في معارك تحرير الموصل، وجاء في إجازة قصيرة ليتلقى الخبر الأسوء، يوم ذاك أخبرته سلوى بحضور أسرتيهما أن لا أمل ..فهي في مرحلة متقدمة لتتحول الى ذكر..وقد عرضت نفسها على أمهر أساتذتها

في كلية الطب فأخبروها أنها لم تعد أنثى..ولابد من إجراء تداخل جراحي يكمل تحولها لتأخذ حياتها المسار الطبيعي..عندها ظن سعد أنه عرف سبب نفورها منه، ولماذا لا يأتيها الحيض، وأنه كان يسعى وراء سراب ظنه ماءً في بيئة قفر تمتد بعيداً في أعماق نفسه.ما لاحظه على سلوى تماسكها ورباطة جأشها، وربما لا أباليتها، وكأنها تتحدث عن فتاة أخرى، في حين كان الجميع يتألمون، فأمها مافتئت تذرف دموع الالم والحسرة والخيبة والشعور بالحرج.

فالصدمة العنيفة التي تلقاها كانت تفوق قدرته على الإحتمال.. وهي بلا شك تحطم أقوى الرجال، كونها أمراً غير مألوف.. فأعرافنا الاجتماعية لا تقوى على تقبل هكذا أمر..لقد علمتُ من أحد المصدرين أن سعداً أفضى لأخيه بأمر زاد من وقع المأساة في نفسه..إذ كان يستغل الخلوة بينه وبين سلوى فيمطرها بقبلات حميمية فهي شرعاً وقانوناً زوجته، كانت تتمنع وتعارض، لكنه كان يري أنه يمارس حقه الطبيعي..

ترى كيف ينظر اليها الآن وقد صارت رجلاً مثله، وكان يقبّله تلك القبل التي لا تليق الا بأنثى؟ ثم ما مصير عقد النكاح الذي عقد لهما وكيف سيكيّف المعنيون الأمر شرعاً وقانوناً؟.. ولم تتركه سلوى

يسئ الظن محاولة إنقاذه من بعض ما غرق في لجته عندما أخبرته أن نفورها منه وعدم ميلها اليه كان أمراً طبيعياً كما أخبرها أستاذ الطب النفسي، فهي رجل سوي لا يعقل ان يميل جنسياً صوب رجل مثله الا في حال الشذوذ.وراح يسأل أخاه:

– هل سمعت أو مرّت بك في دراستك لعلم الأحياء أن فتاة صارت رجلاً؟..لماذا معي أنا بالذات؟..أكاد أجن أعطوني تفسيراً.. لماذا؟ لماذا؟.

وضع باسل التقرير على المنضدة ووضع نظارة القراءة فوقه، حدّق في السقف مثبتاً نظره على نقطة محددة..فبقدر التأثر الذي سببه التقرير في دواخله، فقد أثار في نفسه شجوناً.. إذ أنه وقبل ثماني عشرة سنة عانى من حالة قريبة من هذه التي المّت بسعد، على الرغم من عدم وجود تشابه بين الحالتين، إذ أن قصته ليست بهذا القدر من المأساوية..

فعندما كان برتبة نقيب، رشحت له أخته فتاة مهندسة من زميلات دراستها للإقتران بها، أسعده ذلك الترشيح وتلذذ به، وعاش على أمل أن تكون ريم زوجة له، فهي مهندسة ناجحة وإبنة طبيب جرّاح مشهور، أمها مدّرسة محترمة، حظها من الجمال وافر تحسده عليها زميلاتها ومنهن أخته.

بدأت خيوط معاناته تتبدى عندما قدّم طلباً الى وزارة الدفاع معززاً بمستمسكات ووثائق عن الآنسة وأسرتها لغرض الحصول على موافقة إقترانه بريم..إذ بعد مرور شهر على تقديمه الطلب، إستدعاه آمره ليبلغه بأسف شديد أن الموافقة على زواجه من الآنسة ريم حامد حسان لم تحصل.

إظلمّت الدنيا في عينيه..فقد قدرته على الوقوف وأحس بأنه شاخ فجأة ولم يعد في السن التي كان عليها قبل دقائق..لماذا؟ تلك اللماذا التي لم يجد آمره جواباً عنها ليقدمه له..نهض بتكاسل وقبل أن يصل الباب نسي أنه لم يؤد تحية الإنصراف للآمر الذي كان يشعر بعمق جرحه وهو يتلقى خبر الرفض.

راح في حينها يبحث عن حيثيات هذا القرار المفجع، فزار مديرية الاستخبارات العسكرية ليلتقي بإبن دورته النقيب فرج الذي أفشى له سراً لا يجوز البوح به على الإطلاق، فقد أنبأه أن سمعة أم خطيبته غير المشجعة كانت وراء عدم حصول الموافقة، فهي لا تصلح ان تكون أما لزوجة ضابط في الجيش..ودهش فاغراً فاه:

– مستحيل..مصدركم غير أمين وهناك تحريف للحقائق..

– هذا ما عندي..ولك أن تتصرف وإني واثق إنك ستحافظ على هذا السر، فكشْفَه يعني ضياع مستقبلي، وقد تتسبب بالحكم عليّ بالسجن.أتريد لي ذلك المصير؟

الحّ على صديقه الحاحاً شديداً ودخل معه في جدال طويل مذكراً اياه بما قدمه له في أيام التلمذة في الكلية العسكرية من خدمات، ومنها ما حصل يوم ذهبوا الى معسكر أبي سيف في الموصل للتدريب الاجمالي، فعقب تمرين شاق ومُتعب، غلب النعاس فرج الذي كان متوعكاً وقتها فإستسلم لنوم عميق، ولم يشعر آمر الفصيل بغيابه الا بعد مسيرة مئات الأمتار..فتطوع باسل مع زميلين للعودة بحثاً عنه على الرغم من خطورة المنطقة حيث يسمع عواء الذئاب من كل جانب..وفعلاً وصلوا مكانه وإستصحبوه الى حيث يجتمع الفصيل.

شعر فرج الذي بدا وكأنه يستعيدا شريطاً سينمائيا يتضمن ذلك الحدث وغيره، أنه ملزم برد بعض أفضال زميله عليه مما سهّل له معرفة مصدر المعلومات من خلال مفاتيح أعطاها له..ثم توصل بطريقته الخاصة واستخدام تلك المفاتيح، الى أن استخبارات المنطقة إستقت معلوماتها من متعاون مدني إسمه سعدي ناظم.. لذا أجرى تحرياً عن المتعاون أوصله الى إنه كان يشتغل مضمداً في عيادة أبي خطيبته وسكرتيراً له ينظم قوائم المراجعين من المرضى، وكان يتقاضى رشى من المراجعين فيقدم بعضهم على بعض، لذا طرده الطبيب من عيادته بعد أن أحس بذلك..وعندما سألوه عن

صلاحية الفتاة لتكون زوجة لضابط في الجيش فإنه وجدها فرصة سانحة للإنتقام ففبرك حكاية سوء سمعة أمها وإختلق لها عشيقاً..

وبعد مرحلة من الإجــراءات غيّرت الإستخبارات رأيها وصححت مسار القضية وإستلم الموافقة التي أنهت مأساة عاشها قرابة شهرين..الآن وهو يرى مرؤوسه سعد يعاني من مأساة طال أمدها وتعمقت جذورها فهو يقدّر حجم معاناته وألمه ..فمشكلة سعد غير قابلة للحل كما حصل معه. ما يجعله يصر على إيجاد وسيلة تمكنه من مساعدته..

قدّر أن تحول خطيبة سعد الى ذكر سيضيف محوراً جديداً للبحث الذي سيكون مادة رسالته للماجستير في علم النفس فهي بالاساس مستلهمة من حالة جندي تحول الى فتاة.ربما سيتخذ من سعد محوراً للدراسة كونه تأثر بالأمر وأهمل واجباته وتكاسل في مهماته الوظيفية..

لذا فهو الان يمتلك تفاصيل عن شخصيتين من المتحولين.. الشخصية الاولى شخصية صباح وهو جندي في أحدى وحدات معسكر التاجي، سبق وأن أعلمه بحالته أحد الضباط، وذهب الى التاجي ليلتقيه فتوصل الى أنه ربما عانى من إضطراب هوية نجم عنه ذلك التحول . ومنذ ذلك اللقاء رسخت فكرة التحول الجنسي

بشقيها في ذهنه وصارت هدفه في الدراسة.وها هو الشق الثاني يحط بين يديه متمثلاً بتحول سلوى الى ذكر والتي قدّر انه ناجم عن تشوه عضوي قد ينجح في بلوغ حقيقته لاحقاً .

كانت المعلومات التي توافرت لديه عن قضية صباح الوسيلة التي تمكن من خلالها إستحصال الموافقات على اكمال دراسته العليا في مجال علم النفس.إذ إستطاع وقتها من اقناع وزير الدفاع بضرورة دراسة هذه الحالة، وحجته في ذلك ان الجيش الذي أسس بعد سنة 2003 لم يكن يهتم بطبيعة المتقدمين للتطوع في صفوفه، وإن شراء عقود التطوع في الجيش من قبل الشباب الباحثين عن عمل، حال دون إنجاز إجراءات القبول على وفق المواصفات والشروط المطلوبة، ومنها الفحص الطبي والنفسي..لذا فإن حالة صباح قد لا تكون الأولى والأخيرة.. مما يعني ضرورة دراسة هكذا حالة أكاديمياً ومعرفة تأثراتها النفسية على الجنود والضباط في الوحدة التي تشهد مثل هذه الظاهرة..ومدى تأثر الاداء العسكري وجاهزية تلك الوحدة واستعدادها القتالي.

إشترط عليه الوزير أن لا يترك عمله في الفرقة وهو يواصل دراسته..خصوصاً وان الفرقة كانت يومئذٍ مُنذرة بالتحرك الى محافظة نينوى تمهيداً لمعارك تحريرها من داعش..إلا انه تمكن

من التنسيق مع الكلية التي سهلت له متابعة المحاضرات المهمة خلال السنة التحضيرية عن طريق التسجيل الفيديوي، مع إن زملاءه كانوا يبثون له بعض المحاضرات على المباشر وكان يتابعها بواسطة الإنترنيت..حتى تمكن من إجتياز تلك السنة بنجاح ليتأهل لكتابة رسالته..

إحتفى الأستاذ الذي كلف بالإشراف على البحث بالعنوان، فهي تجربة فريدة من نوعها كونها أول حالة يجري خلالها دراسة ظاهرة نفسية في الوسط العسكري، وطلب من باسل أن يعد خطة بحثه على هذا الاساس، فالبحث سيكون أصيلاً جريئاً عميقاً ..خصوصاً وإنه يضع ثقته بتلميذه الضابط المثقف المتحمس لفكرة البحث عن حلٍ لمشكلة قائمة فعلاً وليست مفترضة.

وها هو يطور البحث ويوسعه بأخذ حالة نصف عسكرية، تتمثل في تحوّل خطيبة ضابط الى رجل ومدى تأثير ذلك نفسياً على الضابط من حيث الاداء العسكري، خصوصا وإنه على إطلاع بتفاصيل ذلك التأثير وقد نصحه المشرف أن يطلب تمديدا ليضيف المحور المستحدث الى رسالته.بقي عليه أن يجعل سعداً يبوح له ويفضي اليه..فكيف سيكون ذلك..لابد من ان يستدرجه ليحمله على الحديث، واختار مدخلا يخفي معرفته التفصيلية بالأمر:

– إبني سعد..أنا أشعر من خلال متابعتي لإدائك مؤخراً، انك تعاني من حالة غير مريحة..ومع إني لا أرغب بالضغط عليك لمعرفة طبيعة تلك الحالة الا أنني أرغب في أن أفضي اليك بأمر يخصني.. فعندما كنت بسنّك تقدمت لخطبة فتاة، وصدمت ان الاستخبارات العسكرية لم توافق على إقتراني بها..ركبني اليأس والتشاؤم والألم وصرت بحال لا أحسد عليه..كلما أراك وأنت حزيناً خاملاً أتذكر تلك الأيام التي عشتها تحت ضغط نفسي عصيب..لذا فإنني مهتم جدا بمساعدتك..فهل إنك إختلفت مع خطيبتك مثلا؟.

حدق فيه سعد طويلاً قبل أن يجيب على هذا الطرح المفاجئ.. فحيثيات قضية آمره مقاربة لمجمل قضيته الشخصية ولكنها أقل منها تأثيراً ومأساوية، والدليل انها حُلت وصُحح مسارها وانتهت نهاية سعيدة إذ إقترن بخطيبته وأنجبا من الأولاد بعضهم بسِنِّه.أما هو، فإنه لم يفقد الأمل بالحصول على منيته وحسب، وإنما هناك ما لا يستطيع الإفصاح عنه، وحتى لو أفصح عنه فإن عنده من الأسرار ما يجعله يشعر بالحرج والخجل حتى من نفسه..وأجاب آمره الذي كان ينتظر الجواب بصبر، يهمه أن يعرف كيف سيعبّر سعد عن مشكلته، فجوابه مهم جداً في تحديد مسار البحث..مما يسهل عليه السعي لإيجاد حل.

– مشكلتي أعمق بكثير من مشكلتك..فهي غير قابلة للحل..مع انها متشعبة.

– أفصح لي عن كل ما يختمر في ذهنك، فأنك بمثابة إبن لي يهمني جداً مساعدتك..

وبدأ يقص عليه حكايته التي جاءت مطابقة لما إحتواه تقرير النائب ضابط فلاح.وأنهى سرده قائلا:

– لا تنس إنها إبنة خالتي وأبوها ابن عم والدي..فلو كانت غريبة ربما كان الأمر أهون.. خصوصاً وإننا نعيش في بيئة ريفية محدودة ، تنتقل فيها الأخبار همساً وبسرعة .

– هل في ذهنك حل لهذه المشكلة؟..نحن بحاجة الى صفاء ذهنك وننتظر عودتك الى ممارسة نشاطك كما كنت في معارك تحرير الموصل.

– ان شاء الله ..فأنا أسعى الى ذلك.

– قبل أكثر من خمسين سنة ظهرت علامات الذكورة على ممرضة في كربلاء، وبتفاقم حالتها صار من الضروري إجراء تداخل جراحي لها تحولت بعده الى ذكر..وكما تعرف فإن لمدينة كربلاء خصوصية وإن تلك الفتاة كانت شخصية عامة فهي ممرضة في

المستشفى الرئيس في المدينة..ومع ذلك كله فقد كان الأمر عادياً لم تخالطه إشكالات ولا تعقيدات، وإن تلك الشخصية عاشت طويلا وتوفيت قبل بضع سنين..عموما أتمنى ان تشعر إنني كأبيك، سأكون في عونك دائماً.

إنصَرَف سعد وهو يفكر في حالة الممرضة التي صارت رجلا، فهو حتى هذه اللحظة كان يتصور ان حالة خطيبته نادرة ليس لها سابقة.وما أن وصل مكتبه حتى بادر الى الإتصال بسلوى..أبلغته أن اللجنة الطبية التي شكلها عميد الكلية قررت إجراء تداخل جراحي لها يغير جنسها من أنثى الى ذكر..وقد عمل أستاذ الطب النفسي المشارك في اللجنة على تهيئتها نفسياً عندما ذكر لها أمثلة عديدة لفتيات عانين من تغيرات هرمونية وبالتالي أجريت لهن عمليات جراحية لتحويلهن الى ذكور، وان الاستاذ ذكر لها حالة لفتاة كربلائية كانت في الستينات تعمل ممرضة تحولت الى رجل مات قبل بضع سنوات، وكانت الصحف نشرت في حينها تقارير صحفية عديدة عن الحالة مع صور لها وهي فتاة، وصورها بعد أن صارت رجلا، ولم يكن هنالك حرج..

أحس سعد بتطابق معلومات العميد باسل مع الأستاذ في كلية الطب حول كثير من الامور، ومنها قضية الممرضة الكربلائية.

– أجدني الآن مستعدة نفسياً لقبول واقعي الجديد..

– .....

– ألو..سعد..مازلت معي؟

– .....

– سعد انت تبكي؟..هل يعقل ذلك؟..سنكون أصدقاء وسأدخل المسلك العسكري لأصير طبيباً عسكرياً في الوحدة التي تعمل فيها..

وضحكت محاولة جعل سعد يتقبل الأمر ..فهي وإن إدعت انها تخلصت من عقدة التحول وانها ستتقبل الأمر وتتعايش معه إلا انها كادت تختنق بعبرتها أكثر من مرة خلال المكالمة، وحاولت التغلب عليها متظاهرة بالضحك..فهي تدري أن حالتها أثرت عليه كثيراً، إذ فقد ربع وزنه، وظهر أكبر من سنه بعشر سنين ..

– سعد أرجوك رد عليّ..بالمناسبة هل ستحضر إجراء العملية؟.. فهي تجرى تحت التخدير العام..

– متى ستجرى العملية؟

سألها بصوت خفيض وبنبرة كئيبة حزينة.

– الأحد القادم في المستشفى الجراحي التخصصي بمدينة الطب.

***

– صرت قواداً..فأنا كالزوج المخدوع آخر من يدري بفسق زوجته..

هكذا كان النقيب عباس يصرخ بوجه رأس عرفاء السرية التي يقودها..

– حشاك سيدي كرامتك محفوظة..

– وهل أبقيت لي كرامة؟..أنت تدري ان هذا السافل المنحط صباح أفسد جنود السرية وإنه يستدرجهم لممارسة اللواطة معه.. ستكون أول من يُسأل عن هذا الأمر في التحقيق وستدفع ثمن تكتمك عليه وعدم إحاطتي علماً به.

وفي مكتب العقيد آمر الفوج راح عباس يشرح معاناته وخيبته كونه أُسْتُغفل، وان بعض جنوده نزلوا الى الدرك الأسفل بممارستهم الفعل القبيح مع جندي مخنث يشبه البنات في سلوكه وكلامه وتصرفاته..سحب العقيد نفساً عميقاً من سيكارته وهو يتمعن بهدوء قاتل في ملامح النقيب الذي ركبته الحماسة .

– وهل تحققت من الأمر بنفسك؟

– نعم سيدي وهذه قائمة بأسماء ستة جنود مارسوا الفعل الفاضح معه..ومعهم إسم رأس العرفاء شمخي حسين رأس

عرفاء السرية الذي كان يعلم بالأمر دون أن يخبرني به..لو كان الأمر بيدي لحققت مع مَنْ قَبِلَ تطوع صباح في الجيش، فهو أنثى في ملابس رجل.

صدر الأمر بايداع كل من ورد إسمه في القائمة التوقيف لحين إنجاز التحقيق..وفي التوقيف كان سجناء آخرون غير هؤلاء قد إنضموا الى الستة، وإستطالت القائمة حتى بلغ تسلسل الاسماء فيها عشرين إسماً.ما دعا آمر الفوج الى إيداع صباح في محبس إنفرادي لتقليل تورط الجنود بالفعل القبيح معه.كان تقرير الفحص الطبي وثيقة تدين الجندي صباح الذي ما أن يئس من إنقاذه من الحبس الانفرادي عن طريق الصراخ، حتي أعلن الاضراب عن الطعام..ولم تجد معه محاولات النقيب عباس لثنيه عن الاضراب متحججاً بأن القانون العسكري لا يسمح للعسكريين بالإضراب تحت أي ظرف..الا أن استدعاءه من قبل المحكمة العسكرية أنقذ الموقف فأرسل الى سجن التسفيرات العسكرية.زاره المحامي الذي وكلته أمه في سجنه الجديد ولقنه بما يجب أن يقوله..وحتى لا يتفاجأ بمنظر قاعة المحكمة وتركبه الرهبة كونه لم ير قاضياً من قبل، فإنه أراه صوراً لقاعة المحكمة وكيف عليه أن يكون هادئاً، وإنه سيقف الى جانبه.

لم يكن القاضي وأعضاء محكمته ممن يتساهلون مع اللوطيين ربما لحرصهم على سلامة البيئة العسكرية، لذا فإنهم حكموا عليه بالحد الأعلى من العقوبة، وهو ثلاث سنوات حبس مع الإخراج من الجيش وجوباً كما جاء في مقتبس الحكم.نظر صباح الى المحامي نظرة يأس وبؤس..قبل أن يخرجه جندي الإنضباط من القفص ويضع القيود في معصميه.

تمعن العميد الركن باسل في التقرير المطول الذي جاءه عن تطور حالة صباح.. بقدر ما أساءه أن يرى هكذا فعلاً قبيحاً في الجيش فإنه إحتفى بالمعلومات الجديدة والمفيدة التي أهداها إياه كاتب التقرير الذي وصف صباحاً بالمخنث..ولكن كيف يوظفها وكيف يربط بينها وبين الفصول الأخرى.. لذا لابد من أن يلتقيه ثانية في سجنه هذه المرة، فهو يحس ان وراء صباح يكمن شئ مهم.كان ذلك التقرير من الوثائق التي عرضها على وزير الدفاع في حينه ليقنعه بالسماح له بإكمال دراسته .سعى وقتها بهمة غير عادية لمعرفة سبب تعطش صباح الى مياه الرجال..ومدى تأثير حالة إضطراب الهوية التي شك انه يعاني منها، على سلوكه ذاك.

– صباح..ما أمرك؟..ولماذا أنت بهذا الشكل وأنت تدري ان عقوبة مرتكب هذا الفعل صارمة عدا عن السمعة السيئة التي سيكسبها من يشارك فيه.

– سيدي دعني أقول لك ما لم أقله في التحقيق وحتى في المحكمة، فلم تعد ثمة فائدة من إخفاء الحقائق. فأنا أعترفت بقيامي بإستدراج كل شركائي ليمارسوا معي هذا الفعل..

ومنّى باسل نفسه بصيد ثمين، وكان الأمر كذلك عندما وقف على حقيقته. فصباح يرى في نفسه أنثى، وهو يحس إنه في طريقه الى تكامل أنوثته وهو ما أخبره به في الزيارة السابقة وأكد عليه في هذه الزيارة، فحالته تفاقمت خلال وجوده في السجن ولا يدري هل للسجن علاقة بالأمر؟..تأكد باسل من صحة ماذهب اليه عندما شخص حالة الجندي بأنه إضطراب هوية جنسية، وعلم منه أن أمه حكت له عن محيسن إبن عم أبيها، الذي بدت عليه الأعراض ذاتها، وعلى الرغم من ان الأم لم تكن تدري ان إبنها مأبوناً، فإنها إعترفت ان قريبها كان قد إنحط ليعتليه الرجال..فاضطر عم أبيها الذي كان شيخ عشيرة مهيب الجانب وإقطاعيا كبيراً يعمل في بيته ومضيفه عشرة عبيد، الى تكليف أحد عبيده لخنق إبنه ليلاً ليصار الى الإعلان عن موته خلال نومه، وقتها لم يكن تنظيم شهادة الوفاة الا ترفاً لا يعني القرويين والبدو.

كان مصير محيسن يحاصر الفتى صباح، فهو يخشى ان يأتي من يخنقه في منامه، لذا كتم حاله عن أهله..الا انه وقد افتضح أمره وصار معروفاً للجميع، فلم يعد بحاجة الى إخفاء ما كان يخشى ظهوره..

ولكي يكسب باسل الوقت فإنه إتصل بأستاذه المشرف ليطلعه على حصيلته من معلومات عن حالة الجندي صباح وتحول سلوى خطيبة سعد، فرأى الأستاذ المشرف أن يعرض الجندي على طبيب إختصاص في جراحة الجهاز التناسلي ليقرر الحالة، فإذا ثبت انه ضمن الشريحة التي يشتغل عليها في بحثه فهو كسب مهم، مع إنه وافق من حيث المبدأ على صحة ما ذهب اليه باسل حول فرضية إضطراب الهوية عند صباح.

لم يجد صعوبة في تبني أمر المراجعة الطبية، فذلك ضمن هدف انتظامه في الدراسات العليا، لذا فهو يسعى الى بلوغ النتائج والمعالجات ليس بصفته الوظيفية وإنما بالصفة البحثية، وكان له ما أراد..

جاء التقرير على وفق ما كان يخمّن، فالطبيب الذي لم يختلف تشخيصه عن تشخيص باسل بخصوص إضطراب الهوية، أوصى بإجراء عملية جراحية لتحويل صباح الى أنثى..لم يكن في الأمر صعوبة بالنسبة الى الجهة العسكرية المختصة، فصباح يُعَد مطروداً من الجيش بحكم القانون، طالما حُكم عليه بالحبس لأكثر من سنة .لذا لا يعنيهم ان بقي رجلاً أو صار أنثى..

– هل عندك الأستعداد لتتحول الى فتاة؟..

سأل باسل صباحاً الذي إفتر ثغره عن إبتسامة عريضة غير متوقعة..

- إذاً ستكون سعيدا بإنوثتك؟

- أنا أحس إن في داخلي أنثى، والعملية ستحرر تلك الانثى وتجعل الآخرين يقبلون بي بالشكل الذي أريده وأرغبه..

- الطقم الاول من ملابسك الانثوية سيكون هدية مني..

أندهش باسل لما رآه من سعادة غرق صباح في لجتها، فهل يعقل أن رجلا يتمنى أن يكون أنثى؟..عموما عليه ان يسجل كل تلك الملاحظات حتى يربط بينها وهو يخطو صوب النتائج التي سيتأنى في سبيل بلوغها.

وفي المدة التي كان باسل يجدّ من أجل جمع المعلومات عن أوضاع المتحولين فسلجياً واجتماعياً ونفسياً..وما نشر عن حالات مماثلة محلياً و عالمياً، فوجئ بما جعله يتوجس كثيرا.. فلقد قدمت أم صباح طلباً الى وزير الدفاع ليطلق سراح إبنها من السجن وتسريحه من الجيش كونه لم يعد يصلح للخدمة العسكرية بسبب تحوله الى أنثى..فالأنموذج عن العسكري المتحول سيغادر الجيش..فهل سيتمكن من التواصل معه بعد تسريحه، فلربما يكون وضعه النفسي بعد تحوله وتسريحه غير ما هو عليه الآن ولربما سيمتنع عن إعطائه مزيداً من معلومات.

طمأنت الفتاة صباح العميد باسل الى أنها ستتواصل معه وستقدم له المعلومات التي يحتاجها وهي سعيدة ان تكون

إنموذجه الدراسي خصوصا وإنه أحاطها بعنايته ورعايته .لذا كان يزورها في بيتها حيث تعرف على أمها التي كانت موافقة على بقاء صباح محوراً لدراسة العميد.

***

على الرغم من حالة الحزن الشديد والكسل المحبط التي ركبت سعدا طيلة أشهر، إلا أن نجاحاته في مجال عمله والتقارير التي كتبها عنه العميد باسل والقدم الوظيفي الذي حصل عليه وترشيحه لنيل وسام، كانت قد أضافت لصفحته في مديرية الاستخبارات العسكرية نقاطا ترجيحية، لذا عندما طلب مكتب القائد العام للقوات المسلحة ترشيح ضابط استخبارات للفوج الثاني من اللواء 56 التابع لها والمسؤول عن حماية المنطقة الخضراء، لم يكن ثمة أفضل منه ليشغل ذلك المنصب..

- ملازم سعد صرت تتوسط؟

- أتوسط مَنْ وعند مَنْ ومن أجل ماذا؟..لست بحاجة الى شئ أتوسط من أجله، وإن احتجت لأن أتوسط فأنت واسطتي.

- شكرا سعد أعرف مشاعرك نحوي وأعتز بك كثيراً..عموماً وردنا أمر نقلك الى منصب ضابط إستخبارات الفوج الثاني لواء

56..ستكون من رجال المنطقة الخضراء ومن منتسبي رئاسة الوزراء والقيادة العامة.. ماذا تريد أكثر من ذلك؟..

قال باسل ذلك ضاحكاً..

– لا أراني مؤهلاً للعمل في هكذا منصب..هل من وسيلة الى الغاء أمر النقل؟

– من ذا يملك القدرة على الغاء أمر ديواني؟..

***

كان الظرف الذي التحق به سعد الى منصبه الجديد ظرفاً ذا تميز.. فما ان إستلم مهام عمله إلا وظهرت بوادر تمرد حَمَلَة الشهادات العليا العاطلين عن العمل الذين إعتصموا قبالة مقر وزراة التعليم العالي، حيث صعّد الوزير من سخونة الموقف عندما أمر الجهاز الامني للوزارة بإنهاء إعتصامهم، فوجهت صوبهم خراطيم الماء الساخن .

حصل على إيجاز أولي عن واجباته من الملازم يقظان الذي كان ينوب عنه مؤقتا.. وفي مؤتمر إسبوعي لضباط استخبارات اللواء طُرح موضوع إعتصامات المتجاوزين على أراضي الدولة وحملة الشهادات العليا ..كان ذلك مفاجأة لسعد..لم يستطع أن يتقبل ما قيل:

– ولكن سيدي ما علاقتنا باعتصام حملة الشهادات العليا..حتى لو انهم رفعوا من منسوب غضبهم فإن الجهة المخولة بالتعامل معهم هي جهاز مكافحة الشغب.

– في كل الحركات الجماهيرية هناك مطاليب ..عادة ما تتصاعد، فهي غير ثابتة ولا تميل الى الإستقرار.. وغالباً ما يرتفع سقفها، عندها ينضوي تحت ذلك السقف كل من يجد في تلك الحركة فرصة له.. لذا علينا ان (نتحزم للواوي بحزام أسد)كما يقول المثل الشعبي..

وعلى أساس مما أثير في المؤتمر، جرى تحديث خطة الدفاع عن المنطقة الخضراء وكان الضلع الشمالي بما فيه أبنية وزارة التخطيط من مسؤولية الفوج الثاني.. فذلك القاطع هو الأشد خطراً في منظومة الدفاع عن المنطقة والأكثر تعرضاً لهجوم الجماهير فيما لو تحقق..إذ إستطاعت جموع المتظاهرين في عام 2016 من إحتلال مجلس النواب وكان هذا القاطع تحديداً، طريقها التقربي الى بناية المجلس...

لذا كان لدى سعد ما يبرر قلقه وطول تأمله في كيفية إنجاز واجباته في ظرف إستثنائي مماثل..إذ بدأ يقتنع ان التهيؤ للدفاع ضد جموع جماهيرية غاضبة أمر متوقع وممكن.فقد بدأت جموع متفرقة من الغاضبين من الكسبة أصحاب البسطيات والمجمعات السكنية غير

القانونية أو ماعرفت بالعشوائيات ممن هدمت الشرطة دورهم أو مُنعوا من ممارسة أعمالهم كونهم متجاوزين على الارصفة والطرق، تتجمهر في ساحة التحرير التي لا يفصلها عن المنطقة الخضراء غير نهر دجلة، ويربط بينهما جسر الجمهورية.

- صدرت الأوامر للشروع بتطبيق خطة الدفاع عن المنطقة الخضراء وعليكم إتخاذ الإجـراءات اللازمة كل حسب موقعه وواجبه..

هكذا بدأ أمر الفوج مؤتمر التنسيق الذي يسبق الشروع بتنفيذ الخطة المعدة سلفاً خصوصاً وإن الجميع مبلغون بها، وسبق وإن مارسوا على تطبيقها في تمارين تعبوية سابقة..

- والان أستمع الى طلباتكم.. سأبدأ بضابط الإستخبارات..هل لديك ما تطرحه؟

- انا لم أحضر أياً من الممارسات السابقة التي طبقتم فيها الخطة..الا أنني مندهش جداً كون الخطة لا تتضمن وضع مرصد عمق فوق بناية وزارة التخطيط ليصير بديلاً عن مرصدنا فوق عمارة المطعم التركي..ان بناية وزارة التخطيط تعد الأرض الحاكمة وهي في الوقت ذاته بمثابة الارض الحيوية بالنسبة لموضعنا

الدفاعي والتي تعرّف إصطلاحاً بإنها إن سقطت يصير الدفاع عن الموضع الدفاعي مستحيلا، وفي حالنا فإن موضعنا الدفاعي الرئيس هو المنطقة الخضراء كما هو معلوم لسيادتك، والتي سيصير الدفاع عنها مستحيلا لو احتل المتظاهرون تلك البناية.. لذا فإني أطالب بفتح مرصد فيها.من هناك أستطيع الإطلاع على كل تفاصيل ساحة التحرير وصولاً الى ساحة الطيران وما بعدها، وبضمن ذلك حديقة الأمة..ناهيك عن أجزاء واسعة من شارعي السعدون والجمهورية.

– مرصدك فوق المطعم التركي يغطي مساحات واسعة أضعاف ما يغطيها المرصد المفترض فوق بناية وزارة التخطيط..

– بلا شك سيدي إلا انني أطمح الى تأسيس مرصد بالعمق يسند المرصد المتقدم الموجود فوق عمارة المطعم التركي ويكون مرصداً بديلاً عنه في حال تطورت الأحداث وتمكّنَ المتظاهرون من التأثير على مرصد المطعم وشلّوا عمله أو إحتلوه.

بدأ العقيد آمر الفوج، وهو ضابط استخبارات سابق، يعرف إحتياجات العمل الإستخباراتي يقتنع بالفكرة وينظر الى سعد نظرة تقدير مغدقاً عليه بقسط وافر من ثقته..لذا سمح له بإرتقاء بناية وزارة التخطيط بالتنسيق مع آمر قوة حمايتها لينظر أي الأماكن أفضل

لتأسيس المرصد البديل المقترح..لإستحصال موافقات الجهات العليا للشروع بتأسيسه في أعلاها.

ثم فاجأه بطلبين آخرين..الأول يتضمن تنظيم عملية تسلل بين جموع المعتصمين في ساحة التحرير لعشرة جنود من جماعة الإستخبارات بأمرة الملازم فارس، وشراء 3 تكاتك يسوقها ثلاثة عناصر ليندسوا بين صفوف المتظاهرين بصفة متطوعين، ينقلون جرحاهم وقتلاهم وطعامهم ..

– بذا سنكون بين المتظاهرين نحصي عليهم أنفاسهم، نعرف القوى المحركة لهم والعناصر الممولة وكثيراً من التفاصيل التي نحتاجها والتي لا نملك حالياً أية وسيلة لمعرفتها.

فرح الآمر وهو يسمع هذه المقترحات التي نالت استحسانه، فعلى الرغم من ان هذا الأمر ينطوي على مغامرة خطيرة، إذ ماذا لو قتل بعض هؤلاء الجنود؟..ماذا لو تغيرت أفكار بعضهم وصاروا متظاهرين حقيقيين وتمردوا على قيادتهم؟ وكثير من الأفكار التي قد تؤدي به الى فقدان مستقبله، وربما حياته، كل ذلك تبادر سريعاً الى ذهنه.بيد انه وجد ضابط إستخباراته ذا تفكير غير تقليدي يستحق ان يهتم به، ففي هذه الحالة يكون الفوج منتجاً للاستخبارات لا متلقياً لها من مقر اللواء ومكتب القائد العام، وهي حالة ترجيحية للفوج

وآمره وضابط إستخباراته .لذا فإنه أوعده بأن يستحصل الموافقة على تحقيق رغباته..فيما فرح سعد بتفهم آمره لإحتياجاته وسعيه لتنفيذ طلباته.

بعد أن أنجز عملية إستطلاع مفصل لسطوح بناية التخطيط والبنايات الملحقة بها، قدم مقترحاً لإنشاء المرصد المقترح في الطابق الحادي عشر وتحديداً في الغرفة التي تقع في الزاوية الشمالية الشرقية من البناية..فهي تؤدي الغرض..وبعد أن رفع المقترح الى الجهة المعنية، قررت تلك الجهة في نفس اليوم، تخصيص الطابق الحادي عشر بأكمله ليكون مقراً للفوج ومرصد عمق بديل..

عصر اليوم التالي تحركت سيارة باص صغير تحمل لوحة أرقام تسجيل مدني من مقر الفوج الى البوابة القريبة من الجسر المعلق والمؤدية الى حي الكرادة..ركاب السيارة عشرة جنود يقودهم الملازم فارس، يرتدون الملابس المدنية بعد أن سلموا كل ما يحملون من مستمسكات ووثائق شخصية، وعوضوا بدلاً عنها بكارت مغلف بالنايلون مكتوب عليه رقم موبايل (عند الحاجة اتصلوا بالرقم 07527713809)، جرى حذف كل محتويات موبايلاتهم، وأضيف اليها رقم خصص لهذه الغاية لموبايل خاص يحمله سعد وقد زود بالانترنت..حددت أماكن وواجبات كل منهم

على أن يقوم فارس الذي عين بصفة ضابط إرتباط بهم، بتوزيعهم وإدامة الإتصال معهم وإستلام المعلومات التي يحصلون عليها وإيصال الأوامر اليهم.. سُلّم كل واحد منهم ثلاثمائة دولار من فئة العشرين دولار مع ثلاثمائة ألف دينار عراقي لكسب بعض البسطاء من المتظاهرين..فيما كُلف مستلمو التكاتك بأن يضعوا أنفسهم وتكاتكهم بأمرة قادة التظاهرة لنقل الجرحى والقتلى وغير ذلك من واجبات..وسلم كل منهم مبلغ مائتي الف دينار لأغراض الوقود. وفي حالة تعذر إتصالهم بالملازم فارس لسبب أو لآخر فعليهم إرسال تقاريرهم على الرقم الذي يحمل اسم حيدوري، وهو رقم الموبايل الذي عند سعد.

***

وفي اليوم التالي لمؤتمر التنسيق، إستدعاه آمر الفوج ليبلغه بأمر زاد من دهشته حتى راح يتساءل:

- كيف تجري الأمـور هنا؟..وهل ان عندنا حكومة بقدر المسؤولية؟

فالعقيد أبلغه إن حضيرة مشاة أي قرابة عشرة أشخاص من جهة غير محددة ستمكث فوق سطح بنايتهم، وإن جماعة من النجارين مع معداتهم سيصلون الى البناية عصر اليوم لينشئوا كرفانات منام

ووحمامات ومطبخ للحضيرة.. عندما حاول أن يشبع فضوله الاستخباراتي ليعرف الجهة التي ينتمون اليها وطبيعة واجباتهم والاسلحة التي يحملونها، الا إن العقيد نهاه عن البحث في هكذا أمور.. فالجهة التي أصدرت الامر هي مكتب القائد العام للقوات المسلحة..وهي أدرى وأعرف بالأمور وما على الفوج الا التنفيذ .

شق الامر على سعد..فقد رأى الجنود المعنيين ملثمين يرتدون بدلات عمل سوداء وكلا منهم يحمل بندقية قنص ..هل يعقل ان الشباب العزّل الذين لا يحملون غير أعلام العراق يقابلهم فريق قنص؟.. وراح يتخيل السيناريو الأسوأ الذي قد يحصل فيما لو استعمل هؤلاء الملثمون المجهولون بنادقهم وأطلقوا رصاص القنص صوب الشباب..نظر الى وجه آمره بصمت وفي داخله قلق وإضطرام يشبه الحريق.

***

اختارت سلوى وقد صارت ذكراً اسم سلام ليكون إسمها الجديد..وبالتدريج بدأت تتعايش مع وضعها المسحتدث..وكذلك كان المحيطون بها من أهل وزملاء..عانت بعض الشئ من نفور بعض صديقاتها في القرية وبعض زميلاتها منها، الا أن تأثير ذلك عليها كان قليلاً كونها استسلمت للواقع ووطدت نفسها على القبول

به..إتفقت مع سعد الذي إستسلم مثلها للأمر الواقع، ان يكونا صديقين إضافة الى علاقة القرابة بينهما..وأن تطغى الصداقة بينهما على باقي صداقاتهم.

كان سلام شريكاً فاعلاً لزملائه طلاب كلية الطب المعتصمين في ساحة التحرير، في تشكيل فريق إسعاف يخدم المتظاهرين المعتصمين بالساحة .كان يخشى أن يكون سعد قد تورط في أعمال قمع ضد المتظاهرين، فموقعه الوظيفي الحالي يوحي بذلك .وعندما سقط أحد المعتصمين جراء إستقرار رصاصة قناص في جبهته فإنه تذكر سعداً ..وتمنى ان لا يكون له ضلع في ذلك..ما دعاه للإ تصال به مستفسراً عن دوره في الأحداث الجارية بين ساحة التحرير والمنطقة الخضراء متمنياً عليه ان لا يساهم في الحاق الأذي بالمتظاهرين والمعتصمين، وأخبره بأن شاباً بعمر الورود قتله قناص قبل لحظات.. أذهل خبر الشاب الضحية سعداً ورأى أن توقعاته ومخاوفه تحققت، فهو سمع صوت إنطلاق الرصاصة القاتلة قبل قليل ..لذا لم يكن أمامه وهو يغالب إنفعالاته غير أن يكذب ويصرف إنتباه سلام بعيداً عن موقعه:

– أنظر أمامك والى اليسار تجد عمارة عاليه تشبه زقورة أور.. هل شاهدتها؟

- نعم تلك أراها ما بها؟

- أنا أتواجد بقربها فأنا مسؤول عن حماية مقر القيادة العامة للقوات المسلحة ولا علاقة لي بالمتظاهرين والمعتصمين..

- صدقني أنا الآن أشعر بالسعادة..فلا أتمنى ان تكون ضمن العسكر الذين يقتلوننا..

وعندما تكرر سماعه لصوت الرمي في سطح البناية، فإنه خاف على سلام، لذا راح وهو يقف خلف قوائم الناظور المكبّر يبحث عنه بمرقبه المقرّب ذاك.. مسح ساحة التحرير مراراً وتصفح وجوه الشباب من مرتدي الصدريات البيض المتواجدين في عمارة المطعم التركي، إلا انه فشل في تحديد مكان تواجده فوسّع دائرة البحث لتشمل ساحة التحرير ومقترباتها..إنه يخشى عليه فلقد رأى بمرقبه سقوط شابين برصاص القناصة وآخر بقنبلة الدخان إخترقت صدره غير الذي اخبره به سلام ..لم يكن يتمالك أعصابه وهو يرى رصاص القنص وقنابل الدخان تخترق رؤوس وصدور شباب بسن طلاب الثانوية ..فسارع الى الإتصال بآمره وأخبره بذلك..الا أن الآمر تلقى كلامه ببرود وربما بلا مبالاة..لذا لم يجد أمامه غير أن يكتب تقريراً إستخباراتياً يضمنه ما اختمر في ذهنه وسبّب له قلقا رآه مشروعاً، علّه يحرك شيئاً مما سكن من ضمير الرجل.فكتب قائلاً:

(من خلال مشاهداتي لمجريات الأمور في ساحة التحرير.. شاهدت شباناً من المتظاهرين العزّل من السلاح يقتلون برصاص القنص..الإصابات كانت دقيقة جداً فهي إما في الرأس أو الصدر وتحديداً في جانبه الأيسر .أعزو هذا العمل للعناصر التي تعتلي عمارة وزارة التخطيط إذ انني أسمع الإطلاقة عندما تطلق وألاحظ ان الفاصلة الزمنية بين الفرقعة والهدّة للسلاح، تكاد تكون معدومة مما يدل على قربها الشديد من مكان تواجدي، وفي اللحظة ذاتها أشاهد أمامي أحد المتظاهرين يسقط.. كما شاهدت رماة قنابل الغاز من خلف حائط الصد الذي على الجسر، يوجهون قنابلهم صوب رؤوس المتظاهرين تحديداً..

ولأهمية الأمر وإنطلاقاً من مسؤوليتنا الإنسانية وواجبنا الأساس في حماية المواطنين أضع المعلومات أعلاه أما أنظاركم الكريمة يرجى التفضل باتخاذ الإجراء الكفيل بمنع هذا القتل..).

لم تمض غير دقائق حتى أرسل العقيد جندياً يطلب من سعد المثول بين يديه..

- ملازم أول سعد..أنا أقدر فيك إنسانيتك..ولكنك أخبرتني بالأمر يوم أمس وحسبت ان الموضوع انتهى، فما مبرر إصرارك على أن تعد مذكرة رسمية بذلك؟..هؤلاء الأشخاص لا يأتمرون بأوامرنا

وإنما يستلمون أوامرهم من مراجعهم وأنت تدري بذلك..لذا فإنك من خلال تقريرك تهدف الى أن تضعني في موقف محرج مع من لا قدرة لي على الوقوف بوجهه.إهتم بعملك وقم بواجبك الذي هو منع المتظاهرين من بلوغ أسوار الخضراء بأي صيغة كانت..فالأمر الذي بلّغتك به في مؤتمر الأوامر وكررت ذكره في مؤتمر التنسيق ان واجبنا حماية المنطقة الخضراء ومنع المشاغبين من إختراقها.. وليس من واجبنا حماية المتظاهرين، لذا عليك صب إهتمامك في تنفيذ واجبك وتحقيق غاية قيادتك. بامكانك ان تنصرف الان.

صعق سعد وهو يتلقى كلام العقيد ولم يجد ما يقوله، ثم ان آمره لم يسمح له بالكلام إذ أمره بالانصراف..تهالك على الكرسي بعيداً عن المرقب الذي كان يقف خلفه أحد الجنود ويحوّل عدساته من جهة الى أخرى..غرق في لجة من الحزن، شعر خلالها بالأسف على نقله الى هذا اللواء وندم على الإلتحاق اليه نادباً حظه الذي ساقه ليكون في هذا الموقع الذي يريه قتل الشبان دون أن يستطيع فعل شيئ للحيلولة دونه.عليه ان يبحث عن جرعة من الإطمئنان ولعل الإتصال بآمره السابق العميد باسل سيؤمن له تلك الجرعة:

- مرحباً سيدي..

- أهلا إبني سعد ..كيف الأمور إن شاء الله على خير؟

– أبدا ليس هناك أي خير..فالشر يعشش هنا حيث أكون مع الاسف..

– ياساتر ..خير ان شاء الله..

وراح يشرح له معاناته الشخصية التي جعلته ينفر من المهنة التي عشقها.. كان باسل يكتب كل شيئ يقوله سعد..فهو يريد أن يتابع حالته النفسية ..الا أنه وجد بلا تعب ولا جهد كبيرين الآصرة القوية بين خطابه وبين معاناته الأكبر.

– لا أخفيك أنني خائف جداً على سلام، فهو مع زملائه طلاب كلية الطب هنا في ساحة التحرير يسعفون المصابين ويخلون الشهداء.. والجماعة الذين على الجسر وفي أعلى عمارة التخطيط بدأوا يستهدفون عناصر الإسعاف في محاولة لكسر إرادة المتظاهرين.. سألني قبل قليل عن موضع تواجدي فكذبت عليه عندما أوهمته بأني قرب عمارة الزقورة بعيداً عن الجسر.

– – حقا انها مشكلة ..ومن حقك أن تخاف عليه..

لم يكن أمام باسل الا ان يخبره أنه وبتبصيره آمره يكون قد أبرأ ذمته مما يحصل..ربما أراد في ذلك أن يعطيه جرعة مهدئة ولكن مفعولها كان ضئيلاً غير فعّال..إذ سرعان ما سمع صوت إطلاقة

أعقبها أزيز مرور الرصاصة، فعلم متيقنا أن شاباً قد قتل. وفعلاً نهض وأزاح الجندي الواقف خلف المرقب لاحظ أن الجندي كان قد ثبت المرقب عند مدخل بناية ثانوية العقيدة الواقعة على يمين راس جسر الشهداء من جهة ساحة التحرير، فثمة شاب ممدد على الارض يبدو ان الطلقة التي سمعها للتو أردته قتيلاً..حرك عدستي المرقب صوب صدر الفتى المسجى فرأى الدم يغطي الجانب الأيسر من صدره. ما أحزنه أكثر هو أن عدداً كبيراً من الشبان هرعوا صوب زميلهم الذي لفظ انفاسه بلا شك..ليته يستطيع إبلاغهم بوجوب الإبتعاد عن الجثة الممدة كونهم يشكلون هدفاً مغرياً للقناص ولرامي قنابل الغاز..ولكن أنى له ان يوصل صوته اليهم؟.. ترك المرقب ليعود الى كرسيه فهو لا يريد أن يرى مزيداً من القتل .

– ألو..ها سلام كيف حالك؟..أين تتواجد بالضبط..

– مقري في النفق ولكني عندما تُطلق قنابل الغاز أو إطلاقات القناصين أخرج مسرعاً لأركب التكتك وأتوجه لإسعاف المصابين.. أنقل بالتكتك من يستشهد أو يصاب وأعود الى المفرزة الطبية. ولكن لماذا السؤال؟

– اريد أن أطمئن عليك..فأنا من مكاني البعيد أشاهد سحب دخان الغاز المسيّل للدموع وأسمع أصوات الرمي وأعلم ان شهداء يسقطون لذا لابد لي أن اطمئن عليك.

– اطمئن ما شاء لك من الاطمئنان فأنا أرتدي صدريتي البيضاء ورسمنا على كل تكتك مخصص للاسعاف هلالاً أحمر..ولا أعتقد أن هناك من يستهدف عناصر الإسعاف..الستم تدربون الجنود على الامتناع عن قتل العناصر الطبية؟.

وبعد برهة قال له:

– معذرة هناك أصابة قرب الجسر عليَّ أن أهرع لإسعافها يبدو أن شاباً أستشهد بطلقة قناص أمام ثانوية العقيدة..سأتصل بك بوقت لاحق ..مع السلامة.

نهض سعد معبأ بالخوف والرعب وقد سرت في جلده قشعريرة، أحس بالبرد وكأن حمى داهمته، فهو يدري الى أين سيذهب سلام، سيكون ضمن متناول رماة قنابل الغاز الذين سيغريهم بصدريته البيضاء وهو وسط تجمع من الشباب، وهو في الوقت نفسه سيضيف اغراءً جديداً الى القناصين..

وسريعاً عاد الى خلف المرقب ليشاهد سلاماً لأول مرة..كان يهرول صوب مكان الشاب الممدد على رصيف الجسر، راح يتدافع مع الشباب المتكومين حول زميلهم ليفسحوا له المجال ليصل الى جسده المسجى على الأرض.وسرعان ما لحقه تكتك أصفر على سقفه هلال أحمر..وقبل أن يصل الى جسد الشاب، رأى سعد

إنطلاق قنبلة غاز من أسفل موقعه وتحديداً من الحاجز المتقدم على الجسر، فضح دخان الإطلاق الرامي الذي أطلقها..هاله ان تلك القنبلة إخترقت رأس سلام الذي هوى نحو الأرض وقد تحول رأسه الى مدخنة تطلق دخاناً ابيضاً كثيفاً..

لم يقو الشباب الواقفون قرب الجثتين على تحمل الصدمة، فصاح أحدهم بصوت جهوري مجلجل:

- شباب الى وكر الشيطان..الى الغبراء..

كان الشاب يقصد بالغبراء المنطقة الخضراء التي اعتقدها مصدراً لإطلاقات القناصين وقنابل الغاز والقرارات المجحفة بحقه وحق أترابه.تبعه مئات الشباب الغاضبين صوب الجسر..وعندما شاهدت الجموع الواقفة قرب ثانوية العقيدة وغرب ساحة التحرير وأسفل عمارة المطعم التركي المهرولين صوب الجسر فإنها اتجهت بعنف وصخب وصراخ لتلتحق بهم وكان الكل يصيح:

- الى الغبراء ..الى الغبراء..الموت للخونة..الموت للفاسدين..

صاح رجل كبير يحمل صورة ابنه الذي قتل في الاسبوع الماضي:

- لا تدعوا أحدا منهم يهرب أبدا..القوا القبض عليهم جميعا ليحاكمهم الشعب.سيكون الشهداء حاضرين في قاعة المحكمة..

***

لم يكن سعد يرى الصور التالية بوضوح فالرؤيا مشوشة حتى ظن ان الظلام يزحف على الكون.. في تلك اللحظة بادر لا إرادياً الى إنتزاع البندقية المعلقة على كتف الجندي الواقف بإزائه، ووضع عتلة الرمي على شق الرمي صلياً ووجهها صوب الرامي الذي أطلق قنبلة الغاز وراح يدقق في هيئة الرامي الذي كان ظهره باتجاه المرصد، حالت صعوبة الرؤية التي فرضها عليه الموقف دون تشخيص الهدف..وسرعان ما أفرغ كل ما في مخزن البندقية من إطلاقات في ظهر الرامي وظهور الجنود الذين يقفون على يمينه ويساره..ثم رمى البندقية على الأرض وخرج راكضاً.. لم ينتبه الى أن الجماهير القادمة من ساحة التحرير اتجهت صوب الجسر.

تبعه الجندي الذي كان معه في المرصد ولكنه إنحرف صوب الممر الأيسر قاصداً غرفة آمر الفوج الذي خرج مسرعاً ليعرف مصدر وسبب إطلاق النار الكثيف قرب مكتبه..

- سيدي ملازم أول سعد تخبل !!.

- لك شنو الموضوع فهمني؟

- سيدي فجأة اخذ البندقية من على كتفي وفرغ مخزنها بظهور الجنود المرابطين على خط الصد الأول على الجسر ..قتلهم كلهم، وإنهزم.

لم يكد الآمر أن يصدق ما سمع من الجندي الذي كان يرتجف أمامه، فصرخ بجنود حمايته الذين تجمعوا حوله منتظرين أوامره:

- أركضوا سريعا خلف ملازم أول سعد والقوا القبض عليه.

وبدلا من أن يعود الى مكتبه الذي يطل على النهر والجسر فإنه إتجه صوب غرفة المرصد .. وقف خلف قوائم المرقب..لقد رأى منظراً أفزعه..

كان جنود خط الصد الاول قتلى، فيما كان المتظاهرون يقتربون من جدار الخط لعبروا الجسر صوب الخضراء، وفجأة لمح سعداً يركض سريعاً حتى وصل قرب جثث ضحاياه، تساءل مع نفسه:

- أتراه ينوي الالتحاق بعناصر الشغب المعتصمين في ساحة التحرير؟ لا أشك بذلك والا فالى أين سيلجأ بعد أن ارتكب جريمته الحمقاء؟.

رأى جنود حمايته يركضون وراء الضابط الهارب الذي بدا أسرع منهم وأوسع خطوات وأكثر نشاطاً. لم يكونوا مستعدين لقتل سعد ولا حتى اصابته بجرح، فهم لا يملكون أمراً بإطلاق النار عليه، واجبهم يتحدد بإلقاء القبض عليه، لذا رفع جهاز اللاسلكي الووكي توكي ونادى على آمر حمايته ليأمر بإطلاق النار على سعد ويعيقه عن الحركة قبل أن يتمكن من إعتلاء الجدار والالتحاق

بالمتظاهرين القادمين صوبه.الا أنه فوجئ بتردد صوته داخل الغرفة حيث يتواجد..التفت الى الخلف فرأى العريف مسؤول الحماية يقف خلفه حاملاً الجهاز:

– إبن الكلب الم تذهب معهم؟..ماذا تفعل هنا ولم لم تذهب مع الحماية لإلقاء القبض على الخائن؟.

– سيدي كنت في الحمام عندما حدث ذلك ولأنني لا أعرف تفاصيل الأمر لذا قررت أن ألازمك..

– والحماية تبتعد بلا وسيلة إتصال؟

– سيدي سأتصل بموبايل نائب العريف مرهون وأبلغه ما تشاء.

في تلك اللحظة التي لم يعد الاتصال بمرهون مجدياً كان سعد قد عبر من فوق جثث قتلاه من الجنود، وعندما بلغ الجدار فإنه تعذر عليه إجتيازه..ارتقى فوق كتفي جندي قتيل كان جالساً وقت موته.. ثم رفع جسمه الى الأعلى ليعتلي الجدار مستنداً على ذراعين قويتين ورفع رجله اليمنى ليكون قدمها فوق الجدار الذي التصق به صدره، وبحركة ثانية نجح بنقل جسمه الى الجانب الثاني تماما فصار قبالة المتظاهرين المتحفزين للانقضاض عليه..وقف صفهم الاول على بعد ثلاثة أمتار منه ليروا ماذا سيفعل .فتحوا ذرعانهم ليمنعوا

زملاءهم من الإستمرار بالركض نحوه، كانت الدموع تنزل على خديه، فك أزرار كتافية قميصه لينتزع رتبته ويلقيها على الأرض. وإخترق صفوفهم دون أن يعترضه أحد منهم، إذ فسحوا له المجال وقد خشعت قلوب أشدهم شكيمة وعزيمة.

لم يتكلم مع أحد ولم يكلمه أحد..رفع أحد المتقدمين من المتظاهرين وهو ملاكم له مساهمات في بطولات خارجية وحائز على جوائز دولية، يده الى الأعلى مطوحاً بها الى الامام واتجه راكضا نحو الجدار الذي يقطع الجسر، وعندما بلغه إنحنى تحته أحد زملائه ليرتقي على ظهره ويجتاز الجدار، لم يتمكنوا من تحاشي دوس جثث الجنود القتلى على الرغم من محاولاتهم، فداسوا عليها. إرتقى آخرون الجدار وعندما تجمع قرابة مائة متظاهر في الجانب الثاني من الحاجز انطلقوا سريعاً صوب الضفة الاخرى حيث بناية وزارة التخطيط عند مدخل المنطقة الخضراء، كانت جموع غفيرة قد تمكنت من الإجتياز وعَقَّبَت الملاكم وصحبه ركضاً..فوجئ جنود حماية الآمر المكلفين بالقاء القبض على سعد بجموع المتظاهرين تتجه صوبهم.فتح مرهون الذي كان يتقدم الجنود، النار صلياً فأسقط مجموعة من الشباب وبه إقتدى زملاؤه، فقتلوا عدداً غفيراً من المتظاهرين

الذين غيروا ناصيتهم ليعودوا من حيث جاؤوا..وعندما حاول المتعبون وكبار السن ممن تعذر عليهم اللحاق بزملائهم فإنهم إختبؤوا بين جثث القتلى من جنود ومتظاهرين، أما الاقوياء فقد تمكنوا من عبور الجدار ليعودوا الى الضفة الشرقية. شعر الجنود بالنصر فزادوا من سرعة تقدمهم وهم يمطرون الجموع المرتدة والمذعورة بالرصاص.. انتبه القناصون في أعلى بناية التخطيط فشاركوا في حفلة القتل يقنصون الشبان المتراجعين صوب الساحة.

وما أن وصل جنود الحماية الى الجدار حتى القوا القبض على عشرين متظاهراً ممن كانوا يختبؤون بين الجثث وقيدوا معاصمهم بأشرطة بلاستيكية تقفل بالسحب وعادوا بهم الى بناية التخطيط.

***

في رواق مدرسة العقيدة وتحت الأقواس التي طالما شوهدت الطالبات في سابق الايام يتجولن بين أعمدتها العالية، حضر شخصان للتحقيق مع سعد لمعرفة دوافعه للعبور، أخبرهم انه ابن خالة الشهيد سلام منعم طالب كلية الطب الذي استشهد قبل قليل..وإنه شاهد قنبلة الغاز تخترق رأسه، لذا فهو لم يعد يتحمل ما يعاني من ضغط نفسي، فهو يراقب الساحة والمطعم التركي بالمرقب المكبر ويعرف

كل ما يجري، وان ما رآه جعله ينفر من واقعه، لذا قرر أن يترك عمله في الفوج ويلتحق بالثوار.

– من يعرفك من الشباب؟

– لا أدري ..ولكن حتى تتيقنوا من صحة ما قلت، بإمكانكم إستخدام موبايل الشهيد والإتصال بأهله وسأكلمهم وسترون.

رأى أحد المحققين إن الفكرة سليمة وستسهّل تزكية الرجل لذا طلب من أحد الشباب ان يأتيه بموبايل سلام .وقبل أن ينهي عبارته وينصرف الشاب لجلب الموبايل، وصلت طلائع الشباب المنسحبين العائدين من معركة الجسر غير المتكافئة، كانت الدماء تنزف من أغلبهم.

وكما قاد الملاكم الشباب في هجومهم، فإنه كان يتقدم المنسحبين من الجسر، كان يعاني من جرح نازف في فخذه الأيسر، وبهجوم مباغت أطبق بيديه القويتين على عنق سعد وهو يصيح:

– خائن حقير ..أوحى الينا بأن الحاجز خلو من الحراس..وما أن عبرناه حتى فوجئنا بالكمين الذي رتّبه لنا ليقتل الكثير من الشباب ويجرح آخرين.

حاول المحققان أن يفكا قبضة الملاكم ويخلصا رقبة سعد الذي كان يرفع يديه ببطئ شديد وقد جحظت عيناه حتى بدتا وكأن

فصيهما على وشك مغادرة محجريهما..ولكنهما عجزا ما جعل الملاكم يسحب سعداً بعنف شديد ويضرب رأسه بجدار المدرسة، تدفق الدم غزيراً صابغاً ملابسه بلونه القاني..وعندما أرخى قبضته تهاوى جسد سعد كخرقة بالية، دون أن يفعل الواقفون في المكان شيئاً، ومنهم المحققان.

مر أحد الشباب عرضاً فرأى شخصاً مضرجاً بدمه مكوماً على أرض مدخل المدرسة.. فصاح دون أن يعرف شيئاً عما جرى:

- تكتك ياولد..جريح ينزف بباب المدرسة ..

وسرعان ما حضر تكتك يحمل فتاة ترتدي صدرية بيضاء وتحمل صندوقا صغيراً أبيض اللون رسم عليه هلال أحمر إضافة الى السائق..وبسرعة ملحوظة ومناورة مدهشة تدل على دربة السائق ومهارته، دخل التكتك باب المدرسة ووقف على الجريح الذي سارعت الفتاة بفحص جرحه للقيام بالإسعاف الأولي..

فغر سائق التكتك فاه وهو ينظر الى الجريح الذي يرتدي بدلة عسكرية..راح يفحصه وكأن الفتاة غير موجودة..كان مندهشاً فهو يرى آمره الذي بعث به الى ساحة التحرير ومعه تكتك ليندس بين المتظاهرين يتسقط أخبارهم ويعرف أسرارهم لينقلها اليه.

- معقولة؟..ملازم أول سعد في ساحة التحرير؟..وبملابسه العسكرية؟..وجريح أيضا؟..لكن أين رتبته؟..هل يعقل انه تسلل الى الساحة ليندس كجنوده واكتشف؟..أم انه كان يقود الهجمة على الساتر الأول في الجسر وأصيب ليسقط أسيراً بيد الشباب؟..

كتم ما أدهشه وراح يتصرف بهدوء كما إعتاد في مثل هذه الحالة.. يساعد المسعفين ويساهم في حمل الجرحى والقتلى الى التكتك.. وراح يصغي بكل جوارحه الى كل ما يقال..سواء ما تقوله المسعفة أو الاشخاص من حضور المشهد، فهو مطالب بإخبار الفوج بما يجري.لاحظ تحول لون وجه سعد الى الاصفر الباهت كأنه ليمونة..

- هذه ليست اصابة بطلق ناري وإنما هي تهتك للجلد ربما لأرتطام رأسه بالارض أو بجسم خشن..سأحاول ايقاف النزيف تمهيداً لنقله الى مقر الطبابة..

قالت الفتاة المعالجة وهي تضع الضماد على رأس سعد وتلفه بشريط طويل من الشاش.. الا أن ما لفت انتباه الجندي المتخفي هو أن الاشخاص الموجودين في موقع المدرسة غير مهتمين بالإصابة..إنسل ليقف في زاوية تنتشر فيها الأنقاض والازبال، وتنفّر عفونتها المارة من التوقف أو المكوث فيها. أخرج موبايله وتلفت يمنة ويسره كأنه يخشى من مراقبة تفرض عليه ثم وقف عند الرقم

المسجل باسم حيدوري..كان أخشى ما يخشاه أن يكون الموبايل الذي سيتصل به مع سعد.. وبصوت خافت:

- الو..

- أهلا جابر تفضل..

- عفوا منو وياي؟

- ملازم يقظان ..

- سيدي ..ملازم أول سعد مجروح جرح خطير برأسه..موجود بمدرسة العقيدة براس الجسر بملابسه العسكرية بلا رتبة..المسعفة تضمد الجرح إصابته ليست برصاصة وإنما ارتطام بالارض أو بجسم خشن خسب تشخيص المسعفة..وراح أخْليه للنفق بالتكتك..

- معقولة؟..ملازم أول سعد؟..أنت متأكد؟..

- تماماً سيدي..

- وين إنجرح وشلون؟

- أي تفاصيل ماعندي والناس القريبين عليه غير مهتمين بالموضوع.

- طيب عندما تخليه إرسل لي مسكول حتى أعرف أن الوقت ملائم للإتصال بك..

وبلا حاجة لإنتظار التفاصيل هرع الملازم يقظان صوب غرفة العقيد آمر الفوج وأوجزه بما حصل عليه من معلومات ..فوجد آمره مهيئا لسماع هكذا أخبار، فهو يملك حساً أمنياً نشطاً، ولو أنه سأل نفسه أكثر من مرة خلال الساعة التي مضت على هروب سعد:

– هل خانني حسي الأمني لذا لم أفلح في اكتشاف شخصية الملازم الأول سعد؟..

ولمحت في ذهنه فكرة غير عادية..

– هل تستطيع أن تتصل بجابر ليجلب لنا الخائن بدلاً من إرساله الى المفرزة الطبية؟

فعلت الدهشة فعلها في تغيير ملامح وجه يقظان..فهذا حكم بالإعدام على زميله سعد.. كيف يمكن أن يتصرف..هل يدعي انه إتصل بجابر؟..ربما سيُسأل جابر لاحقاً..هل يصارح جابراً بما يراد وما يجب فعله؟..ربما سيشي به..أم انه سينفذ الأمر ويطلب من جابر أن يحاول جلب سعد ليحاكم ويعدم؟..

– الموبايل الخاص بالاتصال بجنودنا في الساحة ليس معي الان نه في غرفتي ..سأتصل بجابر وأخبره بما أمرت.

غادر مكتب العقيد الآمر متعثراً بخطاه تكاد رجلاه تنكصان عن حمل جسمه وإتخذ في داخله قراراً..هو أن يتأخر بالإتصال بجابر

بضع دقائق على أمل أن يكون سعد قد وصل موقع الطبابة.. إذ من حسن الصدف أنه لم يحمل الموبايل المخصص للاتصال بالجنود في الساحة، لذا عليه أن يمشي ببطئ شديد علّ تكتك الاسعاف يصل موقع الطبابة في النفق..كانت غرفته بعيدة نسبيا فهي تقع في نهاية الممر الطويل وبلوغها يستغرق وقتا وهو ما يريد.

ما إن صار قبالة المرصد حتى سمع رنين موبايل فدخل الغرفة.. بحث بمساعدة الجندي الراصد عن مصدر الرنين فعثروا على الموبايل ..انه موبايل سعد.. كان إسم العميد باسل هو الظاهر على الشاشة..

– الو ملازم أول سعد كيف الحال..عساك بخير.

– عفوا سيدي أنا ملازم يقظان..الملازم سعد فيييي.....

وتوقف عن الكلام لا يدري كيف يقدم له المعلومة الصادمة..

– خير ان شاء الله..ما به؟إبني يقظان..أخبرني..

– الملازم الأول سعد فتح النار على جنود حائط الصد في نهاية جسر الجمهورية وقتل أغلبهم والتحق بالمتظاهرين في ساحة التحرير..

– معقولة؟..ما دعاه الى فعل ذلك؟..

– ليس لدي اية معلومات..كل ما أعرفه انه الان جريح جراء اصابته برأسه وربما جرى إخلاؤه الى المفرزة الطبية في نفق السعدون.

- هل لديك إتصال به؟

أوعد العميد انه سيخبر سعداً عندما تحين الفرصة ليتصل به.الا أن العميد كان أذكى من الملازم عندما قال له:

- كيف ستتصل به ويتصل بي وموبايله معك تكلمني به الآن؟.. إرسل له موبايله أو على الأقل إبعث له رقمي ليتصل بي، إن استطعت.

- عندنا عناصر متواجدون في الساحة..سأتصل بأحدهم.

إنتبه باسل الى ما فرط به يقظان من سر من أسرار عملهم..وتبادر الى ذهنه أن فكرة إرسال عناصر الى الساحة تندس بين المتظاهرين وترفع المعلومات عنهم هي بلا شك من إبداع سعد..وتذكر الجنود الذين زرعهم بين صفوف تنظيم داعش قبل تحرير الموصل.. وتساءل مع نفسه:

- هل يعقل ان سعداً خطط لخنق الثوار وكسر شوكتهم كما فعل مع الدواعش؟..لا أظن فإنه عندما كان يتصل بي يتكلم عن المتظاهرين بإحترام، حتى انه كان منزعجاً جداً من قيام مفرزة يجهل انتماءها بقنص المتظاهرين..المهم عندي الآن هو معرفة سبب قيامه بقتل الجنود والتحاقه بالمتظاهرين.

***

عندما عاد العميد باسل متعباً، من جولة قام بها على ضباط استخبارات الوية الفرقة وجلس خلف مكتبه، فتح إضبارة بريد وضعها نائب ضابط القلم. أطال النظر الى سطور الكتاب الوحيد الذي كان في الإضبارة..فهو يتضمن أمراً بنقله الى منصب لم يكن يخطر على باله..هو منصب ضابط ركن الإستخبارات في مكتب القائد العام للقوات المسلحة..

– الآن وقد إدلهمت الخطوب وصار للشعب معسكراً وللحكومة آخر..ومن ينتقل الى معسكر الحكومة يراه الشعب خائناً وعدواً أنقل الى القيادة العامة؟..

فهو في منصبه الحالي لا علاقة له بما يجري في ساحات الإعتصام، إلا انه في منصبه الجديد ضمن هيئة ركن القائد العام، وبدوّامه في المنطقة الخضراء يكون قد إنتقل الى معسكر الأعداء من وجهة نظر الشعب..صار مستقبله، وربما حياته على المحك..

وراح يبحث عن وسيلة تنقذه من هذه الورطة إلا أن عقله المتعب المثقل بالهَمْ الكبير، أبى أن يعينه.فوضع الكتاب على المنضدة ورفع الموبايل ليتصل بيقظان..

– مساء الخير إبني ملازم يقظان.

– مساء الخير سيدي مرحباً بك..

– من فضلك هلا تواصلت مع سعد أو عرفت شيئا من أخباره.. فأنا ملزم بالتواصل معه كونه أنموذج أشتغل عليه في بحث أكاديمي عليّ نشره خلال هذا الشهر..فأنا طالب ماجستير أعد رسالة عن حالة معينة يشكل سعد جزءً من نسيجها.

– كلا سيدي العزيز..ما عندي انه مازال قابعاً في نفق السعدون يعاني من إصابة في رأسه نجهل كيف حدثت.

***

ألم باسل بواجبات منصبه الجديد ومسؤولياته هناك وأتقن السياقات المعمول بها في مكتب القائد العام، كان ذات صباح عند مدير المكتب، وبعد أن فرغ من شرب الشاي:

– سيدي عندي إقتراح..فيه دهشة وفيه كثير من الفائدة..

– ما هو؟

– أن أتسلل الى ساحة التحرير..

شهق مدير مكتب القائد العام هو يرفع صوته بالسؤال:

– ماذا؟ ملازم أول سعد ثاني؟

– لا سيدي ملازم أول سعد قتل جنودنا وانهزم ..أنا ذاهب لأخدم قيادتي وجيشي..

– وماذا ينقصك وانت في مكتبك لتكمله بدلا عن لتذهب الى حيث الخطر الحقيقي؟..ثم هل حسبت حساب ان يراك جارٌ لك أو جندي كان بإمرتك سابقاً وأنت بين المتظاهرين؟..ماذا سيحصل؟.

لم يكن إقناع الرجل من قبل ضابط مثقف وذو تجارب حصيفة، صعباً، لذا قام باسل بحلاقة شاربه بماكنة نمره صفر، وحمل معه في كيس نايلون عدة الشغل..وهي دشداشة من النوع الرخيص و يشماغ..و نظارة سوداء ونعال إسفنج وحزام جلد عريض من النوع الذي يتمنطق به القصابون..وهوية احوال مدنية مزيفة تحمل صورته، وإسمه فيها جاسم مصاول عباس ومهنته فيها كاسب.. إنطلق عبر الجسر المعلق صوب الكرادة داخل..هناك دخل بيت شقيقته، كانت زيارته قصيرة لم تتجاوز عشر دقائق، خلع قميصه الاصفر وبنطاله الجوزي وإرتدى الدشداشة، ولف حول رأسه اليشماغ، وضع النظارة الشمسية القاتمة على عينيه وتحزّم...ذهلت نجاة وهي ترى أخاها يتنكر، عصفت الافكار في ذهنها ترى لماذا وهو بهذه المكانة يرتدي هذه الملابس؟..وظنت أنها عرفت ما ينوي فعله:

– باسل..إن كنت تنوي الإندساس بين المتظاهرين لتقتلهم..فلا تفعل..أقسم بروح أمي لوفعلت لأتبرأ منك علناً..وستحل العداوة

بيننا بدل الأخوّة مدى الحياة..أياك اياك..فأنا وأولادي وزوجي من المتظاهرين ..

نظر اليها مبتسما:

– دكتورة مهندسة واستاذة جامعية..زوجك من أشهر أطباء القلب..إبنك مهندس ناجح وابنتك صيدلانية..بيتكم يساوي أكثر من مليار دينار تحت كل واحد منكم سيارة فخمة..ماذا ينقصكم حتى تتظاهروا؟.

– نتظاهر مطالبين بوطن خال من الخونة والفاسدين ممن دنست تاريخك المشرف بخدمتهم.. نزلنا نطالب بحقنا..وحقنا ليس مال ولا جاه..حقنا سيادة وطنية ورفاه اجتماعي وعدالة ..لا أدري كيف أقنعوك حتى تبيع مبادءك التي عشت مفتخرا بها.

– من قال لك انني أقل وطنية منك؟ إطمئني فأنا وعلى مدى عمري العسكري لم أقتل أحداً أبداً على الرغم من خوضي غمار عشرات المعارك..ولن أفعل ذلك ما حييت..فأنا لم أذهب لأقتل المتظاهرين ولا غيرهم..هل رأيت معي سلاحاً؟..

– إذاً أنت ذاهب لتتجسس عليهم وتشخص قادتهم ثم ترسل من يقتلهم..

– صدقيني لم أذهب بصفتي ضابط إستخبارات..بل بصفتي باحث في مجال علم النفس وطالب ماجستير وإن الاشخاص الذين اشتغل عليهم من المشاركين في التظاهرات بساحة التحرير.

– أتمنى ان يكون الأمر كذلك..بل أتمنى أن أصدقك..

وما أن خرج حتى إتصلت بإبنها الموجود بين المعتصمين في ساحة التحرير وأخبرته بأن خاله قادم الى الساحة متنكرا.. طلبت منه متابعته ومراقبته، وأخبرته أنه سيدخل الساحة من جهة شارع السعدون.. وصفت له ملابسه حتى يسهل عليه تشخيصه من بعد.

فتش شرطي باسلاً في حاجز ساحة النصر قبل اكماله مسيرته في شارع السعدون صوب ساحة التحرير، وإجتاز الحاجز تحت مراقبة وميض ابن أخته الذي ظل يراقبه عن بعد دون أن يشعر به..وعندما هم بدخول نفق السعدون فإن ابن أخته سارع الى وضع كمامة طبية على وجهه وارتدى نظارته حتى لا يكتشفه خاله الذي كان يهمه جدا معرفة ما يهدف اليه بين المعتصمين وسار في عقبه ..راح باسل يسأل كل فتاة وشاب يرتديان صدرية بيضاء عن جريح إسمه سعد..الى أن وجد من يدله:

– تقصد سعد الضابط؟

– نعم هو.. أنا خاله وأريد أن أطمئن عليه.

وقاده الشاب الى حيث يرقد سعد على فراش مد على الأرض تحت سقف النفق..ما أن رآه من بعد حتى علته الدهشة المصحوبة بالخوف، فقد ميّزه وأدرك انه قادم للقائه ومن مسافة عشرة أمتار صاح باسل:

- إبني سعد لا تنهض أرجوك .

إنتبه فريق الطبابة الموجود هناك الى القادم الذي ظنوه والد سعد..وما أن وصل مِطرحه حتى هوى عليه يحتضنه ويقبله..

- أتيت لتلقي القبض عليّ؟

همس سعد في اذن باسل.

- لا سعد فنحن اصدقاء أكثر مما تربطنا العلاقة العسكرية..أتيت لأطمئن عليك..

- وتسأل عن سلام؟..

- حقا ما أخباره؟أخبرتني أمه قبل أيام انه في ساحة التحرير..حاولت الإتصال به قبل ايام، فلم يرد..

وفجأة تلألأ الدمع في مقلتي سعد..

- خيراً ان شاء لله..لا تقل لي إصابه مكروه؟

- قتله الأنذال شر قتلة..

وكأنه إطمئن الى زائره غير المتوقعة زيارته فراح يقص عليه ما حصل..كان باسل المشهود له برقة القلب ينظر الى سقف النفق والجدران لعل الدمعتين اللتين أبتا الا النزول تعبيراً عن حزنه وتأثره، ان تمتنعا عن النزول..ولكنهما كانتا أقوى من محاولاته..زادت دمعاته إطمئنان سعد.. فأكمل قصته وكيف شعر وقتها بأن كل شيئ أمامه أسود..عدا سحابة الدخان الذي تصاعد من رأس سلام، إذ كان أبيضًا..

– علمت انك تركت موبايلك في مقر الفوج..بأية وسيلة تتصل بأهلك؟..

– بواسطة موبايل سلام..إستلمته من الشباب.

– تصورتك محروماً من الاتصال لذا جلبت لك موبايل..هل تحتاجه؟

– لا..بالمناسبة أعطني رقمك ..

– رقمي مسجل بموبايل سلام..لذا سنتواصل بواسطته.لا أدري ما أسماني المرحوم في سجل موبايله.

تساءل باسل عن صحة ما لديه من معلومات حول الساحة التي تعج بالمخدرات والخمور والمثليين وحفلات العهر وغير ذلك كثير..لم ينكر سعد وجود تلك الأمور..الا انه وجود محدود..وراح يسرد تفاصيل أدهشت باسلاً..

وتذكر باسل الأنموذج الأهم في دراسته، إنها صباح:

- تعرف صباح التي تشكل الشخصية الأولى لدراستي..سمعت انها تتواجد هنا في ساحة التحرير..هل عرفت عنها شيئاً؟.

- نعم أعرفها، صباح المتحولة..سبق وأن اخبرتني عنها ..لا أدري إن كانت هنا.

- حاول أن تستدل عليها فهي مقيمة هنا في الساحة.ليست بصفة متظاهرة، وانما بصفة أخرى .يبدو انها غيرت رقم موبايلها لذا تعذر علي الاتصال بها.

- كيف قبلوا بوجودها؟..ربما هي أحد العناصر المنْدَسّة. أشكرك أنك نبهتني الى وجودها هنا، عموما سأبحث عنها وأوافيك بما أحصل عليه.

- هل تحتاج الى طبيب؟

- لا طبعاً..جلب لي الشباب أمهر أطباء التجميل وأجرى لي عملية ترقيع لفروة الرأس المتهرئة.. وهو يراجعني كل يوم تقريبا قبل ان يشرع بفتح أبواب عيادته التي في ساحة النصر.

كان وميض مندهشا لما يرى، فهو يشاهد خاله يبكي لأول مرة.. ولكن لم يسمع شيئا مما دار بينه وبين سعد..أشعرته دموع خاله بشئ

من الاطمئنان، فليس من المعقول انه وهو على هذه الحال يحمل نوايا شريرة.

عند مغادرة باسل الساحة بصحبة سعد الذي نوى توديعه عند جدار ساحة النصر، فإنه وجد نفسه في موقف صعب..إذ توقف أمام خيمة فيها جمهور كبير لم تستوعبه، بدا وكأن ثمة محاضرة تلقى والناس تسمع باهتمام..لم يكن صوت المحاضر الذي ينتقل الى المستمعين عن طريق مكبرات الصوت غريبا عليه، لذا حاول تخطى الحضور حتى وصل رواق الخيمة، فرأى المحاضر، وما ان التقى نظراهما حتى علتهما دهشة مشتركة، فالمحاضر لشدة دهشته توقف عن الكلام برهة من الزمن..ويبدو ان الدهشة قطعت سلسة أفكاره فنسي ما كان قد قال..

أما باسل فقد رفع يده لا إرادياً وكأنه أراد أن يغطي وجهه، قبل أن يتدارك الأمر ليضع أطراف أصابعه فوق شفتيه..

فالمحاضر هو الأستاذ المشرف على رسالة باسل، وكانت رؤيته لباسل وهو العميد في إستخبارات القيادة العامة للقوات المسلحة متواجداً في ساحة التحرير بين المتظاهرين، مبرراً لدهشته، اتراه هو الذي يسمونه مندساً يقتل المتظاهرين؟ أم إنه حضر ليتجسس عليه وهو يعمل على تثقيف المتظاهرين وينبههم الى مسائل تفيدهم

معرفتها؟، فعمله ذاك لا يتلاءم مع توجهات السلطة..وإلا فما معنى ان يتنكر بهذه الملابس التي لا تلائم وضعه الوظيفي والاجتماعي؟.

فيما تعود دهشة باسل الى أن استاذه الناشط بين صفوف المتظاهرين، ضبطه مندساً بين تلك الصفوف متنكرا بملابس مدنية غير لائقة..فإشارة منه تجعل هذه الجموع تنقض عليه وتقطعه ارباً، الا أن الاستاذ كان نبيلاً حكيماً عندما غض الطرف عنه..الى ذلك إنصرف ذهنه.

لم يدرك سعد ما إعترى الرجلين الا أنه التفت صوب باسل مبتسماً:

– لقد وجدت ظالتك ..محاضرة عن علم النفس وكأن إختيارك هذه الخيمة عن علم مسبق..

– ها..أكيد..أقصد لا طبعا فما أدرانـي بمحاضرات خيم الساحة؟..إنها صدفة وحسب.

– والآن ..لاشك انك تتوق الى البقاء هنا..

– نعم فعلا..أريد أن أستمع الى المحاضرة.

وبذا فإن سعداً عاد الى الساحة فيما سارع باسل الى إحتلال كرسي نهض الجالس عليه ليغادر، فليس من المعقول ان يترك

خيمة المحاضرة دون ان يفسّر لأستاذه غاية وجوده في الساحة وبهذه الملابس الخلقة. سرعان ما إنتبه الى ان عودة سعد ليست في وقتها الملائم، فالتفت صوبه الا انه صار خلف جموع المتلقين الواقفة في الشارع.وقف وميض على الرصيف ليؤمن مراقبة جيدة، وقد اختلطت في ذهنه الصور..فمن ذا الذي زاره خاله في النفق؟.. ولماذا كانا يبكيان؟ولماذا جلس يستمع الى محاضرة هنا في ساحة الاعتصام وإن كانت ضمن إختصاصه؟.

تقدم صوب الأستاذ الذي راح بعد الفراغ من المحاضرة يمسح صلعته بمنديل أبيض، كان اللقاء مريباً حافلاً بكثير من الجدية..

– مرحبا دكتور خالد..كيف الصحة..كم أنا سعيد ان أتوقف لأستمع الى محاضرة مفيدة فأفاجأ ان حضرتك المحاضر..في الحقيقة أنا حضرت هنا لأن صديقا لي من المتظاهرين أصيب برأسه وأتيت لأطمئن عليه ربما انتبهت له، فهو الذي كان معي وقت دخولنا..حضوري تطلب مني ان أرتدي هذه الملابس..

– مرحبا بك أستاذ باسل أقدر ذلك..لا بأس عليك..أحد الزملاء وهو عضو في التنسيقية وجه لي دعوة لإلقاء محاضرة تفيد الشباب المتظاهر وتصب في جهود تثقيفهم وتوعيتهم..

– كنت قد أنجزت الفصل الأخير من رسالتي وكذلك البحث المخصص للنشر، وأنا على وشك تقديمهما لحضرتك للإطلاع عليهما..في الفصل الختامي خواتيم غريبة لنموذجَيْ الدراسة.. فسلام إستشهد هنا بينما صباح في هذه الساحة وقد بلغني عنها من الامور ما يزعج، سأفصل ذلك في البحث.

– متابعة رائعة وعمل ميداني مثير انتظر تلك النتائج المشوقة.

واتفقا على ان يلتقيا في الكلية بعد أسبوع ليسلم باسل استاذه الفصل المنجز.وما أن وصل باسل حتى كتب في دفتر ملاحظاته معلومات رأى انها من الاهمية بحيث تفيده في بلوغ نتائج كبيرة..تلك المعلومات تقود الى البحث عن جواب على سؤال كبر وتعملق في ذهنه:

– هل ان ملازم سعد شاذ جنسياً؟..والا ماذا يعني انه وقد اعتاد على رؤية قنابل الغاز تقتحم رؤوس المتظاهرين والقناصين يقنصونهم دون حسيب ولا رقيب، لم يفكر بالإنتقام ..فلماذا انتقم بتلك الطريقة المروعة عندما قتل سلام على أيدي رماة قنابل الغاز؟..فهو لم يسجل على سعد أي خلل في سلوكه من هذه الناحية ..ما جعل الأمر يحتاج الى تفكير عميق وتحري مزيد من المعلومات ليقرر على براءته والبحث عن مبرر لما فعل.

***

راح سعد يبحث عن صباح ..أخبرته زميلة لإبن خالته ان الفتاة صباح موجودة في خيمةعواد..وهي فتاة غير ملتزمة حضرت الى موقع الطبابة عندما كانت تعاني من مغص كلوي.. عرفها بعض الزملاء وقالوا انها متحولة..

أمسك سعد برأس الخيط، وسعى لجمع المعلومات عنها، ليخبر باسلاً، أولاً ..وليقف على حقيقة وجودها بين المتظاهرين ثانيا.. فهو يستحضر المبدأ الاستخباراتي الأهم(إجعل من الشك طريقاً توصلك الى الحقيقة)..لذا فهو سوف لن يظلمها عندما يشك بها أو يرتاب منها.

بعد يومين زار خلالها خيمة عواد، شعر المتواجدون في الخيمة بريبة من حضوره على الرغم من ان الضماد الذي يلف رأسه كعمامة بيضاء يفترض ان يكون شهادة حسن سلوك وسلامة نية له.إنفرد به عواد وراح يمطره بالاسئلة وكأنه يحقق معه.

ما ان عاد الى الساحة حتى بادر الى إطلاع أحد أعضاء التنسيقية التي تقود جماهير المعتصمين على حقيقة ما رأى ولمس في خيمة عواد..وفوجئ أن التنسيقية تعرف كل شئ عن عواد وخيمته..كانت حصيلة زيارة الخيمة ولقائه بعضو التنسيقية وما وقف عليه من معلومات انه صار جاهزاً للبدء بكتابة تقرير يبعثه الى باسل عن حال

صباح المُنْدَسّة وطبيعة خيمة عواد..ولكنه بادر الى الإتصال به قبل ان يشرع بالكتابة.وتكلم بطريقة مشفرة:

– اهلا استاذ شوقي .. التقيت بتلميذتك صبيحة في التظاهرة وبعثت معي برسالة لك ستصلك غدا.

– لا تبعثها فأنا سأحضر للقائها..سأمر عليك لتصحبني اليها.

– أرجوك استاذ لا داعي للحضور ..الآن على الاقل..فهي مصرّة على الاعتصام وترفض الدوام رفضاً قاطعاً.إقرأ الرسالة وبعدها إن تيسر لك وقت فأهلا وسهلاً بك..

أدرك باسل ان حضوره غداً غير محبذ من قبل سعد ..لذا بات ينتظر الرسالة علها تضيف نقاطا مهمة الى بحثه.

جاء في التقرير الذي أرسله سعد الى باسل:

تتواجد صباح مع صديقتين لها متحولتين في خيمة عواد.. وعواد يسمى هنا القوّاد وخيمته تسمى خيمة القواد أو خيمة عواد القوّاد..فهي بقعة مشبوهة في الطرف الجنوبي من الساحة تقع قريبة من ساحة النصر..الخيمة لا تشبه باقي الخيم، فهي من خيم الجيش السابق من فئة 400 باون مربعة الشكل عالية، لونها خاكي، سقفها مخروطي يعلوه علم العراق..لاحظت انها مقسمة من الداخل الى ما يشبه الغرف..يخضع الجدد من قاصدي الخيمة

الى تحقيق.. المعلومات المتيسرة عند التنسيقية عن عواد وخيمته وعصابته غير مشجعة، فهم يرون ان عواداً ومن يستظل بخيمته عناصر مدسوسة الا انهم لم يتوصلوا الى الجهة التي جندتهم، وهم بصدد معرفتها..

المؤكد ان الخيمة هي مصدر لنشر المخدرات بأقوى أنواعها، وانها وكر للدعارة واللواطة، من فيها متهم بقتل المتظاهرين وانهم حصلوا على سكاكين كثيرة من المجاميع المسلحة بالسيوف والسكاكين التي اجتاحت الساحة وطعنت المتظاهرين..كان جماعة عواد أدلاء لهؤلاء..ومنهم من يتتبع العناصر الناشطة والمسعفين والاطباء عند خروجهم من ساحة التحرير ليدل المتربصين جنوب ساحة النصر فيقومون بإغتيالهم أو إختطافهم..

المشكلة ان التنسيقية عاجزة عن إتخاذ إجراء ضد عواد وجماعته، كونها لا تملك سلاحاً ولا تأثيراً، كل ما قامت به انها أخبرت العناصر الأمنية المتواجدة في ساحة النصر بشكوكها في طبيعة الممارسات التي تجري في خيمة عواد، الا انها لم تلق اذناً صاغية، لذا فإن وضعها الصعب، جعلها عاجزة عن حماية المتظاهرين من جماعة عواد والإبقاء على سلمية التظاهر.

فيما يخص صباح فإنها قبل اسبوعين التحقت بخيمة عواد صحبة اثنتين من صديقاتها وهما متحولتان أيضا..منذ التحاق هذه

المجموعة المتحولة والخيمة تشهد حفلات صاخبة تستمر حتى الفجر..يمارس في تلك الحفلات كل أنواع الموبقات .

هذه معلومات اللجنة التنسيقية وتكاد تكون مؤكدة وبالامكان إعتمادها والإشتغال عليها.

كان باسل قد عزم على زيارة الساحة مجدداً واللقاء بسعد ليبلغه بصدور حكم غيابي من المحكمة العسكرية ببغداد بحقه، فلقد حكمت عليه المحكمة بالإعدام .وعليه أن يسلم نفسه لتعاد محاكمته حضورياً قبل أن يلقى القبض عليه فيقع تحت شروط الظرف المشدد.وبينما كان بعد العدة للقيام بتلك الزيارة، إستلم تقريراً أمنياً وضع مسؤول مكتبه عليه عبارة(من مصدر درجة الثقة به عالية جدا)..شعر بالورقة التي كتب على وجهها التقرير ترتجف بين أنامله ..مضمون التقرير كان خطيراً أدخله في دوامة..

فكاتب التقرير ذكر ان أحد أفراد حماية سياسي من سياسيّي الصف الأول كانت له علاقة غير شريفة بفتاة متحولة إسمها صباح لازم، أندست بين المتظاهرين..وإن تلك العلاقة المشينة كانت مع تلك الفتاة عندما كانت فتى قبل أن يتحول الى فتاة.

سلم هذا العنصر الفتاة قنينة عطر نسائي، تحوي مادة جليكول الأثلين وهي سامة تقتل من تدخل جسمه بعد ثلاثة أيام.وطلب منها

أن تفرغه في قناني صغيرة توزعها على زميلاتها ليفرغن محتويات القناني في قدور طبخ طعام المنتفضين..أخبرها مُطَمْئِناً، ان هذه المادة ستتسبب في حالة إسهال للمتظاهرين وعندما تفعل مفعولها في أجوافهم سيضطرون الى مغادرة الساحة، وبذا ستنتهي هذا الاعمال التي شلّت حركة البلاد منذ الأول من الشهر العاشر ولا يعلم أحد متى ستنتهي، وبذا فإن عملها سيكون وطنيا يستحق كل تقدير وإحترام من لدن سيّده..

طمأن الحارس صباحاً الى ان بطئ مفعول هذه المادة سيجعل إكتشافها صعباً، وعندما يكتشف ستكون في مأمن..إذ سيكون بإمكانها الهرب وسيتم تعيينها فوراً في إحدى السفارات خارج العراق.

ان قتل عشرات المتظاهرين في ظرف ثلاثة أيام بطريقة مجهولة يجعل النظام في أمان من المساءلة خصوصاً وقد بدأت وسائل اعلامية معينة تدس أخباراً عن شقاق بين المتظاهرين قد يؤدي الى حالات إنتقام ينفذها بعضهم ضد البعض الآخر، خصوصاً بعد ان برزت خلافات حول إختيار بعض الشخصيات لإشغال منصب رئيس الوزراء..

لم يكن باسل قد تعرض الى حالة رعب وفزع طوال خدمته العسكرية كالتي انتابته منذ شرع في قراءة هذا التقرير..فما سيحصل

كارثة كبرى..إذ قدّر أن ذلك الفعل قد يودي بحياة مئات ولربما آلاف الشبان الأبرياء. وراح يفكر في كيفية المعالجة وطبيعة التصرف..هل يبلغ رئيسه في العمل، مدير مكتب القائد العام للقوات المسلحة؟.. لا طبعاً فلربما يكون على علم بالأمر..فليس من المعقول ان سياسياً من النسق الأول يقدم على عمل كهذا من أجل مصلحته الشخصية فحسب، فهي مصلحة نظام كامل..ثم انه يملك معلومة مشابهة، فمفرزة القناصين فوق بناية وزارة التخطيط تعمل بعلم القيادة وبموافقتها كما أخبره سعد في حينه.

وبعد أن إستعرض كل السبل ومسالك العمل المتاحة قرر أن يتوجه الى ساحة التحرير ليمنع حصول ذلك..ترجل من سيارته العسكرية قرب بيت أخته وأمر السائق أن يعود بعد ساعتين لينتظره قرب حسينية الحاج عبد الرسول علي .في بيت أخته، ارتدى دشداشته ولف اليشماغ على رأسه كالعمامة فأخفى شعره الأشقر، وتمنطق بالحزام العريض، وبالنظارة المعتمة أخفى زرقة عينيه.. منتعلاً نعال إسفنج (أبو الاصبع)..ثم استكرى سيارة اجرة نقلته الى ساحة النصر..

- حضرتك صاحب بسطية بشارع السعدون؟

سأله السائق.

- لا أنا متظاهر.

في الخيمة المخصصة لسعد وبعد أن أبلغه بقرار الحكم الصادر بحقه ناصحاً إياه ان يسلم نفسه، الا أنه لمس منه عناداً وإصراراً على البقاء في الساحة لحين يتغير النظام، فإنه واثق أن فعله سيُشمل بالعفو كونه خدم المتظاهرين وقتل قاتليهم، وقال مازحاً:

- ماكو وطن ماكو دوّام..نازل آخذ حقي .

وبعد ن يئس من إقناعه متأكدا أن نصحه لن ينفع فإنه انتقل الى الفقرة الأهم من جدول نقاشه، وهي التي جاء خصيصا من أجلها.. فراح يشرح له التفاصيل التي أرعبته..إرتبك سعد وهو يرى رئيسه بحال من الارتباك لا يحسد عليه فغادرته روح الدعابة وغابت الابتسامة التي علت وجهه برهة من الزمن:

- عندنا شخص دفعناه لإقامة علاقة مع صباح..سوف أرسله الآن ليعرف إن كانت موجودة في الساحة؟..

عاد الشخص سريعاً كما ذهب..وأخبر سعداً ان صباحاً غادرت الساحة منذ عصر الأمس وما زالت غائبة، وعندما سأل عنها إحدى صديقاتها قالت انها ربما تعود قبل الظهر..

تلقى مسؤولو التنسيقية كلام سعد باهتمام شديد..لذا عندما إقترح عليهم ان يوافقوا على قيامه مع شابين وفتاة بتفتيش الداخلين

الى الساحة من جهة ساحة النصر..إعترض احدهم الى أن ذلك قد يثير مشاعر رجال الشرطة الذين يفتشون الداخلين الى الساحة.. ولكنهم وتحت ضغط الوقت الذي بدأ يمضي سريعاً وافقوا على أن يتم اخبار الشرطة بأنهم يشكّون في أن منشورات تحريضية ستدخل الساحة لتأجيج حماسة الشباب وتخرجهم عن سلميتهم..خصوصاً وإن الشرطة لا يبحثون الا عن السلاح والاحزمة الناسفة التي قد يتمنطق بها بعض الداخلين الى الساحة..

وبعد أكثر من ساعة على قيام مفرزة سعد بعملها، وصلت صباح وهي في أتم زينتها، إبتسمت لها الفتاة المكلفة بالتفتيش، وطلبت منها أن تفتح حقيبتها اليدوية، إندهشت صباح بادئ ذي بدء ورفضت كون هذا العمل لا يليق بها فهي معتصمة مشهود لها بالوطنية والإخلاص.. إتبعت المفتشة أسلوباً هادئاً مجاملاً، ففتحت صباح الحقيبة، أخرجت المفتشة قنينتي عطر.. فاعترضت صباح:

- قلتم انكم تبحثون عن مناشير تأجيجية..هل شككتم في أن العطور تؤجج مشاعر الشبان وتخرجهم عن سلميتهم؟.

لم تجب الفتاة وانما قدمت القنينتين الى سعد الذي حيا صباحاً بإحترام وأوعدها أن يعيد اليها القنينتين عند مغادرتها الساحة، كونهم أصدروا ليلة أمس بياناً طلبوا فيه من فتيات الساحة ان يخففن من

زينتهن وان لا يستخدمن العطور وخاصة المهيّجة حفاظاً على سلامة وحسن سلوك الشباب تجاههن..وان القنينتين بأياد أمينة.. التفتت الفتاة المكلفة بالتفتيش صوب سعد وكأنها تحسده على سرعة بديهته التي أدهشتها.

رأت صباح ان الأمر صار معقداً والمخطط لم يمض الى ما هدف اليه واضعوه، لذا طلبت من سعد أن يعيد اليها القنينتين على أن تودعهما عند صديق خارج الساحة..الا أن سعداً الذي بالغ في المجاملات والإحترام، أراها مجموعة من القناني التي أُخرجت من حقائب المتظاهرات قبلها وإنهم لصقوا شريطاً على كل منها كتبوا عليه إسم صاحبتها.وسرعان ما إقتطع قطعتين من شريط ورقي لاصق، لصق كلا منهما على قنينة طالباً من صباح إبلاغه بإسمها ليسجله عليهما..

– كفى مهزلة..أعد اليّ عطوري فسأغادر الساحة وأزيل كل مكياجي وأترك عطوري في الخارج..

قالت ذلك بانفعال شديد وصوت يقرب من الصراخ.

– ليس الأمر بيدي ..بإمكانك أن تتفضلي معي الى مقر التنسيقية وسأحاول مساعدتك.

– وهل الأمر بهذه الخطورة؟..تتفرغ التنسيقية لي وتترك إدارة الساحة والإعتصام حتى تقرر إعادة قنينتي عطر؟...هل يعقل لذلك؟.

لم ينفع الحاحه في أن تبلغه بإسمها ليكتبه على قطعتي الشريط اللاصق ..لذا لم يعد مهتماً بإسمها ودعاها الى الركوب معه في التكتك ليعرض الأمر على لجنة الإنضباط في الهيئة، وهم من يقرر ان كان العطر مثيراً من عدمه.

كان سائق التكتك قريباً منهما يعتلي تكتكه، وحال توجه سعد صوبه، أدار المحرك، فركب خلفه ومعه صباح وإنطلق بهما صوب خيمة اللجنة الأمنية للتنسيقية.

– عفوا زميلي، الست المحترمة يبدو انها لم تسمع ببيان منع التبرج والعطور المثيرة في الساحة، لذا اضطررت الى مصادرة قنينتي عطر كانتا معها..

– من أية مجموعة حضرتك؟..

– من جماعة عواد..

– أنعم وأكرم.. لم يتطلب الأمر كثيراً..هذا زميلنا فراس وهو خبير عطور، سيفحص القنينتين وسيقرر على شدة إثارتهما، ثم نعيدهما اليك..تفضل زميل فراس ..ننتظر منك النتيجة.

تناول الصيدلي الدكتور فراس الذي كان مهيأ للعمل القنينتين، إذ كان يلبس قفازين من النايلون، فيما وضع عدة المختبر في محل لأحد باعة الاجهزة الالكترونية خلف الخيمة في مدخل شارع الجمهورية..وراح يحلل محتوياتهما .سرعان ما عاد حاملاً كماً هائلاً من الذهول والدهشة. كان كل من في الخيمة ينتظر النتيجة، وما ان ولج حتى راح الجالسون يمطرونه بانظار مفعمة بأسئلة صامتة.

– مع الاسف هذه القنينة فيها سم جليكول الأثلين يقتل ضحيته بعد مرور 72 ساعة من تناوله.. هذه الكمية تكفي لتحقيق إبادة جماعية يروح ضحيتها كل من في الساحة ومداخلها مهما كان عددهم لو أنها وضعت في قدور طبخ طعامهم..

التفت رئيس لجنة الأمن في التنسيقية الذي فتح عينيه على اقصاهما صوب صباح.. وسألها بهدوء مصطنع يخفي وراءه عاصفة تكفي لإقتلاع خيمته ومعها صف من الخيم المجاورة:

– صباح من اين جئت بهذا السم وكيف تريدين استخدامه؟..

– مستحيل ..أنتم بدلتم عطري بمادة سامة وتريدون ان تلفّقوا لي تهمة لأنكم تكرهوننا نحن جماعة الاستاذ عواد.

– صباح..نحن نعرف متى وكيف ومن أعطاك هذه السموم وكيف ستوزعينه على القدور وبم أوعدك ..ولكننا أردنا التأكد.

– إخرس يا قذر..تتهمني بقتل المعتصمين الذين أنا منهم منذ مطلع شهر العاشر، فانني لم أغادر الساحة حتى خلال الهدنة التي اعطيناها للحكومة الفاسدة..أنت مسؤول عن هذا الإتهام الخطير والتلفيق الذي حصل..سوف أقاضيك..

وفجأة إرتفع جدار الخيمة ليدخل شخص ملثم يحمل حديدة بطول ذراع علاها الصدأ الذي أكل بعضها فبدت غير منتظمة..رفع الحديدة الى مستوى سقف الخيمة وهوى بها على رأس صباح التي تناثر مخها مخلوطاً بشظاياً عظام الرأس ومن حيث دخل قفز ليهرب متجها صوب حديقة الامة....قفز أعضاء اللجنة الذين تلطخت ثيابهم وحتى وجوه بعضهم بما تناثر من مخ ودماء ليمسكوا بالشاب الذي رمى الحديدة الملطخة بالدم والمخ . وما أن غادروا الخيمة والكل منهم يصرخ طلبا للعون من الجماهير لتمسك بالقاتل إلا أن الطريق أمامهم صوب الحديقة كانت غير سالكه..فثمة ثلاث تكاتك مصفوفة حالت دون حركتهم..وبعد أن اجتازوها وقد فرضت عليهم تأخيراً..وجدوا حلقة من الشبان يرقصون الدبكة..كانت حلقتهم تتحرك بالاتجاه الذي يروم اعضاء اللجنة التوجه نحوه..كان تأخيرا

مضافاً..كان البعض يحاول أن يمد بصره بعيدا لكي لا يغيب القاتل عن مراقبته..وعندما نزلوا الى داخل الحديقة أعاقهم جماعة يلعبون العابا خشنة تختلط فيها المصارعة بالقتال الاعزل..وعندما انعطف القاتل صوب محلة البتاويين كانوا لايزالون يتابعونه بالنظر، بينما تضاعف طول المسافة التي تفصله عنهم.

دخل الملثم زقاقا من أزقة المحلة..وسرعان ما حرك بائع متجول عربته حتى كادت تسد مدخل الزقاق، أختفى عن انظار معقبيه الذين أصروا على الامساك به..فثمة جريمة قتل تلوث سمعة قيادة المعتصمين..

- ياجماعة أخشى أن نقع في كمين نقتل فيه جميعا.

صاح علاء وهو يبطئ من سرعة ركضه.

- لايهمني أن أقتل بقدر ما يهمني الامساك بالمجرم.

أجابه ناصر الذي زاد من سرعة ركضه فتقدم جماعته .

إنعطف المعقبون صوب أحد الازقة الأكثر ضيقاً..فوجدوا الشاب الملثم ممداً على الاض والدم يتدفق من صدره..كانت طلقة يبدو انها إنطلقت من مسدس كاتم للصوت قد إستقرت في قلبه، فلم يسمعوا صوت رمي على الرغم من قربهم من المكان.

أخرج علاء موبايله وراح يصور الجثة بعد أن انتزع الكوفية التي لف القاتل بها رأسه..

- لابد أن المحققين من الشرطة سيعرفونه.

- أنا متأكد من أن القتلة الان في الخرائب المجاورة يصورونا وقد نتهم بقتله..

وفي الخيمة لم يتعرف أحد على هوية القاتل من صوره..أطال مهند النظر الى الجثة المكومة أمامهم والتي انتقلت اليها ذبابة كانت تحط على قدح فيه فضلة شاي..ثم غادرت الخيمة من الفتحة التي أحدثها دخول الملثم..وسرعان ما دخل سرب من الذباب ليحط على الرأس المهشم..

شكر وإمتنان

أتقدم بوافر شكري وكبير إمتناني للصديقين المبدعين المتألقين الدكتور عبد عون المسعودي والروائي علي لفته سعيد لتفضلهما بقراءة مخطوطة روايتي هذه.. دام لهما التوفيق.

2020 – 2 – 10